المفاخر

في

معارف الأمير الجزائري عبد القادر والسادة الأولياء الأكابر

للأستاذ الدكتور

أحمد كمال الجزار

راجعه وقدم له فضيلة الإمام

محمد زكي إبراهيم

رائد العشيرة المحمدية

الطبعة الأولى

المفاخر

في

معارف الأمير الجزائري عبد القادر
والسادة الأولياء الأكابر

للأستاذ الدكتور

أحمد كمال الجزار

راجعه وقدم له فضيلة الإمام

محمد زكي إبراهيم

رائد العشيرة المحمدية

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م



الإهــــداء

إلى مشايخى ...

★ سيدى وأستاذى العارف بالله الإمام محمد زكى إبراهيم رائد العشيرة المحمدية أطال الله فى عمره .

★ سيدى العارف بالله الولى الامى محمد أبو الفضل دفين قرية الصافية / مركز دسوق . أول من عرفنى بطريق القوم رحمه الله تعالى .

★ سيدى محمد عبد المجيد شهاب الرفاعى الإخميمى رحمه الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة فضيلة الإمام رائد العشيرة المحمدية

المحمود بالمحامد كلها ، ربنا جل وعلا،والمصلى والمسلم عليه ، نبينا محمد أشرف الملا ، والمرضى عنهم ، أهل الله ، ومن لهم تلا .

وبعد ..

فقد أحسن الظن بى ولدى فى الله ، السيد الصالح المبارك ،الدكتور أحمد الجزار ، وسألنى كتابة كلمة يستفتح بها باكورة كتبه إن شاء الله ، وذلك الذى أنصف به الواقع والأمير عبد القادر ، وهو يعلم ما أعانى من أمراض طويلة ، منذ سنين ، وكيف نقف فى انتظار نداء الله لاحول لنا ولا قوة ،غير التأرجح بين الخوف والرجاء .

ووقع فى نفسى أن هذا الكتاب آية جديدة على صدق وقوع كرامة الموتى من أهل الله لصدوره فى هذا الوقت بالذات ، بما يحمل من رموز وإشارات وتبعات ومفاهيم بين دورتى الظاهر والباطن ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ .

وقد استجمعت همتى البدنية وقرأت فصولاً من هذا الكتاب الجامع بحق ووقفت بالدعاء خجلا أمام الكثير من المواقف التى ذكرنى فيها المؤلف رضي الله عنه بما وهبه الله من حسن الظن وإشراق البصيرة ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقد تيقنت مما يسر الله لى قراءته من هذا الكتاب العظيم ، كيف وظف الله تعالى قلم ولدى الدكتور الجزار ، وسخر له من سعة الاطلاع ، وسعة الصبر على البحث والمقارنة والتحقيق ، وبلوغ ما هو أسلم وأقوم من الأحكام التى تجمع الأمة ، وترفع الكلمة ، وتبعث الهمة ، وترد كيد الكائدين ، وجهل الجاهلين ، وتصفع أقفية الحمقى والمكفوفين ، فى مجال الخصوصية بين مقام الأشباح والأرواح ، والسطوح والأعماق.

الكتاب جامع بحق ، رائع بحق ، ولا شك أنه نفحة من الإلهام والعبقرية وقد يمكن الاستغناء به عن كل ما هو فى موضوعه ، ونظرة إلى محتوى هذا الكتاب (الفهرس) تكشف القناع عن كنوزه ، وتؤكد أن الكاتب إنما كان يكتب بالله ، ولله ، وفى الله ، ومن الله ، وإلى الله ، فى عدل ووسطية وتحقيق ومدد، وسواء رضى بعض الناس أو غضبوا ؛ فما كان لله دام واتصل ، والعاقبة للتقوى .

ولولا قسوة المرض ، وشدة الضعف ، لقدمت من الكتاب نماذج ترضى الله ، وتبهر أولى البقية من الناس.

إن الإقدام على إخراج هذا الكتاب ، بما يتطلبه من تكاليف وتضحيات مادية وأدبية خاصة وعامة ، إنما هو فى عصرنا هذا بكل انحرافاته نوع من المجازفة أو المغامرة ، ولولا أن المؤلف صاحب دعوة ، وحامل مبدأ ، ويكفى أنه من العشيرة المحمدية .

جعل الله هذا الكتاب بكل ما يتعلق به من المعانى والمقاصد فى ميزان ولدى الدكتور الجزار ، بقدر ما أفادنا ، وخدم الحقيقة ، وأنصف التاريخ ، ودعا إلى التى هى أقوم . .

وصلى الله على الرسول الأعظم . . وعلى آله . . وصحبه . .
وذريته . . وأمته جميعاً . . وسلم .

المفتقر إليه تعالى وحده
محمد زكى إبراهيم
عفا الله عنه وعافاه

المعادى ـ القاهرة
٢٠ من ربيع الأول ١٤١٧ هـ
موافقاً ٥ من اغسطس ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أنعم على الإنسان بنعمة الوجود ، فكان الإنسان جحوداً ، وضج وضجر ، وكدح باحثا عن مستقر ، ودار وحار وهو فى أسعد ديار ، وإن كان ظاهرها دمار ، لكن باطنها فيه الترقى لأرواح الأخيار ، ولولا ذلك ما نزلت الأرواح فى أجسام الأبرار . .خلقه الله فيها ، فما درى بها ، وحثه العدوّان : النفس والشيطان ،على أن يبحث عن السعادة بالإكثار والزيادة لكن من الهمّ والغمّ فشقى وندم ، وصارت أيامه عدم ، فيا ليته شكر نعمة الوجود وعرف لماذا هو موجود ، وكيف يعرف ، وقد أدار ظهره لينبوع الأنوار وتوجه للعدم والبوار .

وأصلى وأسلم على أكمل المخلوقات ،ونور الذات السارى فى التكوينات النعمة العظمى للموجودات،والرحمة الكبرى للمخلوقات ، شاكرها وجاحدها سيدنا محمد ﷺ ، أوذى فدعا لمن آذاه ، وهذه صفة كل أواب أوّاه ، وأسجد شاكراً أن خلقنى الله فى أُمَّته ﷺ وعرّفنى بحقيقته وحقيقة أصحابه وورثته ، المخصوصين من بين الخَلْق بنور ذاته ، والكائنين فى هذه الدنيا فى جنّاته ،وإن كان ظاهرهم عذاب وأذى وجحيم ولظى ، لكن نظرهم لوجه الحبيب جعل كل عذاب يذوب ويغيب والناس فى سعير ولهيب .

وجهى بذاتك مشرق وظلامه فى الناس سارى

الناس فى سدف الظلام ونحن فى ضوء النهار

وأدعو للصحابة الكرام والتابعين الأعلام ، وأولياء الكرم ، الوارثين لأنبياء سائر الأمم بفضل رسولهم الأكرم ﷺ .

وأقدم هذا الكتاب عن حياة وأسرار ومعارف الأمير عبد القادر الجزائرى وأؤيد كلامه بكلام من جاء قبله وبعده من أولياء الله ، وهو موضوع صعب وعسير ، كما قال أحد العارفين : معرفة الولى أصعب من معرفة الله ،

ويندرج هذا القول على رؤية الولى أو قـراءة كلامه ، فالأنفاس المبـاركة تسرى من الإنســان فى أفعـاله وأقواله ، وأخـاطب بكتـابى أهل الطريق من المريدين السالكين ، والمحـبين المتبركـين بنفحات الأوليـاء الذين تركوا الأهل والولد ، وخرجوا من البيت والبلد ، وإن كانوا فى بيوتهم ساكنين وفى بلادهم قاطنين.

أقول هذا الكلام ، وقد ضـاعت الأيام ، فى اللهو والجهل والظلام، فـيا حسرتى يوم يقول الكافر ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ لأن كل نعيم تصيـبه فى الدنيا ينقص من أجرك فى الآخرة .

والأمير عبد القادر كان من أهل البلاء حيث يقول :

أمولاى طال الهجر وانقطـع الصبر   أمولاى هذا الليل هل بعده فجر ؟

قال الـرسول ﷺ : « نحن مـعاشـر الأنبيـاء ، أكـثر الناس بلاء ثم الأمـثل فالأمثل » [(١)] ، يبتلى المؤمن على قدر إيمانه فـمن كان فى إيمانه صلابة شُدِدَ عليه البـلاء ،والإمام عبـد الغنى النابلسى يضع البلاء فى جـملة النعم ، وابن عطاء الله فى حكمه يقول :« عجبتُ لقوم يقادون إلى الجنه بالسلاسل »، وابن عربى فى كـتابه (**مواقع الـنجوم**) يتمنى أن يرى قلبـا حزينا فطوبى للمُـبتلى صاحب القلب الحزين ، وعبـد القادر الجيلانى يقول : « **علامة الولاية البلاء** » فهـل فى ذلك كفـاية لك ؟! تردك إلى رشدك وتنيـر قلبك وتريك الحق حـقا والباطل باطلا ؛ فتسير فى حياتك على بصيرة من ربك !! .

وأظن شيطانك يقول لك : ما حكم البلاء فى العـصاة وأعداء الله ؟ قل له تلك عقوبة عُجِّلَت لهم فى الدنيا ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ولا تظن أنى خرجت بك عن سياق الكلام ؛ فحـياة الأمير كلها بلاء وما ذاق طعم الراحة إلا فى أواخر حياته حين انتـقل إلى دمشق وعمره يقترب من الخمسين عاماً أو يزيد ، وقبل ذلك كانت حـياته كلها جهاداً أصغر ضد الغزاة الفرنسيين ، وجهاداً أكبر ضد نفسه ، ويكفى أن تسمع قوله فى قصيدة له يعبر فيها عما يلاقيه من العناء والتعب :

---
(١) رواه الطبرانى عن أخت حذيفة ، وحسنه السيوطى ، وله شواهد كثيرة .

يا عابـد الحرمين لو أبصـرتنا   لعلمت أنك فى العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه   فنحورنا بدمائنا تتخضب

ريح العبير لكم وريح عبيرنا   رهج السنابك والغبار الأطيب

وكان يخاطب بكلامه هذا كاتبه « قدور بن رويله » كى يعود من بلاد الحجاز إلى الجهاد ويترك خلوته وعبادته ، وهذا من دهاء الأمير حيث كانت بلاده تعانى الاحتلال ؛ فخاطب ابن رويله برسالة كلها تلويح وإشارات بالعودة إلى الجزائر ، كى لا يكشف الفرنسيون مقصده ، وليس فى كلام الأمير لجهاد النفس تهوين وتحقير كما فهم البعض . فقد دامت حربه للفرنسيين ستة عشر عاماً عانى فيها ما لا يمكن وصفه ، عاداه بنو وطنه من الجزائريين ، وعاداه سلطان المغرب وأكثر من هذا عاداه بعض إخوانه من صلبه

وقد اخترت الأمير بالذات فى هذه الدراسة لعدة أسباب منها :

أنه نموذج صادق للصوفى فى عصرنا هذا ، خاض بحار الدنيا والدين، وجمع بينهما على أكمل وجه ، وفى حياته أبلغ رد على المحجوبين من أعداء التصوف الذين يعتقدون أن التصوف سلبية وخمول وكسل ، وترك الحياة الدنيا

ومنها : صلات الأمير بالدول الغربية ، وكيفية سلوكه معهم ، مع عدائه لهم وحبهم له ، فسلوكه مع طوائف الخلق وأجناسهم المختلفة حيّر الكثيرين .

ومنها : بلوغ الأمير إلى درجة القطبانية ،حيث استظهر القرآن الكريم إلهاماً وإلقاء غيبيا ، ولا يصل إلى هذه المرتبة إلا الأقطاب ، مثل أبى يزيد البسطامى كما ذكر عن نفسه :« ما مِتُّ حتى استظهرت القرآن كله »،وليس بعيداً أن يكون الأمير من أقطاب الظاهر والباطن رغم مشاغله الدنيوية الكثيرة، وأسوق هذا الكلام حتى لا ييأس أهل الله من هذا الزمان ، ويقولون: إن ظروف الحياة التى نعيشها تمنعنا من سلوك الطريق ،فالحكيم الترمذى فى كتابه (ختم الأولياء) يقول: إن من الأولياء من يحتاج إلى صفو الزمان وإقباله ، ومن الأولياء من يطفئ نورهم ظلمة الوقت ؛ فلا يحتاجون إلى إدبار الزمان أو إقباله .

ومنها : أن الأمير يعتبر من تلاميذ الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى، ونقصد التلمذة الروحية ، رغم أن الأمير أخذ عن الشيخ محمد الفاسى الشاذلى ، وكان قبل ذلك قادريا ونقشبنديا ، ويعلن فى كتاب المواقف لقاءاته الروحية مع الشيخ الأكبر . فهو بحق تلميذه وشديد الصلة به ، فإن كان هذا حال التلميذ ، فما بالك بالشيخ الذى رماه علماء الرسوم بالكفر والزندقة ، وذلك لأنهم يخوضون فى علم بعيد عن أذواقهم إن كان لهم ذوق .

ومنها : أن شيخى وقدوتى وملاذى الإمام محمد زكى إبراهيم يقول فى كتابه (**أصول الوصول**) :

« التصوف عقيدة وخلق وجهاد ودعوة ، ومتابعة القرآن والسنة ، والتخلى عن كل رذيلة ، والتحلى بكل فضيلة ، والسلوك الملتزم بطاعة الله ورسوله ﷺ ليس فيه ما يخالف الشريعة ، وليس من التصوف البدع التى انتشرت بين الطرق الصوفية ، كالضرب على الدف والمزمار وآلات اللهو والرقص والاختلاط بين الذاكرين والذاكرات ، وترك الأخذ بالأسباب » . . وحياة الأمير نموذج كامل لما يراه شيخنا .

ومنها : أن الأمير اشتهر بين الناس وتلاميذ المدارس أنه ثائر جزائرى لا أكثر ، وكل من كتبوا عنه فى الكتب المدرسية لم يذكروا أنه رجل دين وفقه وتصوف ، وكان يشرح صحيح البخارى فى مجالسه وألفية ابن مالك . وله تفاسير وإشارات للقرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ .

ومنها : أن كل الذين كتبوا عن الأمير لم يتناولوا الجانب الصوفى من حياته ، إلا كتاب يتيم للأستاذ جواد المرابط ، وهو عبارة عن مجموعة محاضرات ألقيت فى مناسبات مختلفة ، فلم تعط الأمير حقه ، ولم تبين للقارئ مقام الأمير بين أهل الله العارفين .

والكاتب الوحيد الذى كان بوسعه أن يكشف لنا عن تصوف الأمير ، رفيق كفاحه وابن عمته الحاج مصطفى بن التهامى الذى وضع كتابًا عن الأمير حققه د. يحيى أبو عزيز ،ووضع له عنوان « سيرة الأمير عبد القادر وجهاده »

وهو أكثر الكتب صدقا وواقعية فى الكلام عن الأمير ، إلا أن الكاتب - لظروف قاسية ، حيث صنف الكتاب وهو سجين مع الأمير فى امبواز - لم يقدر على كشف الجانب الصوفى لصاحب الترجمة ، واكتفى بذكر حوادث ومواقع الجهاد، واستطرد واسترسل فى موضوعات بعيدة عن حياة الأمير ، وقد كتب كلامه للفرنسيين خاصة ، لطلبهم ذلك منه ، والحاج مصطفى بن التهامى من أهل الله العارفين،ويكفى أن تقرأ قصيدته المسّماة (الغوثية) فى (٥٥٢) بيتا من الشعر لتعرف مقامه،وهى قصيدة كلها توسل وتضرع إلى الله بأسمائه الحسنى ، وبأنبيائه وملائكته وأوليائه ،فيها فائدة عظيمة لمن يقرأها لتفريج الكروب وجلب الفرج ونذكر منها بعض أبياتها :

لما جرى القدر بالخلاف	ووقع الخلف بالائتلاف
ووجب الوحش بقفر اليّم	وأنحف النقص ببدر التم
أسأل ربى بالصديق ابن البتول	ثم حصور زكرياء القبول
أضرع بالكتاب والفرقان	لموسى والإنجيل والقرآن
والقائلين ربنا أخرجنا	من هذه القرية عادت سجنا
والدارقطنى وبالأوزاعى	والثورى والحافظ بالإجماع
وبالثعالبى وبالهوارى	وبابن ناصر وكل قارى
مولاى عبد القادر الجيلانى	عونا على انكشاف ما ابتلانى
يا غوث وقتنا إليك يشكو	أميرنا ومعشر فيبكوا
يا صاحب التصريف فى الأمور	وكافلا بشأنك المأثور
إلى جنابك السنى اشفع	بأولياء الله ثم أرفع
وسيلتى بك إلى الشفيع	المرتضى محمد الرفيع
يا شافعاً نرجوه يوم نبتلى	اشفع فى حالنا وفك المعضلا

... إلى آخر القصيدة (١) .

(١) سيرة الأمير عبد القادر ، مصطفى بن التهامى ، ص ٣٠٤ .

ولكن الحق تعالى لم يشأ لهـذا الولى أن يصنف كتـابا عن معارف الأمـير ومنازلاته الروحـية ، وكل شيء بقضـاء وقدر ؛وفـمن كل ما سبـق ذكرنا له دفعـتنا القدرة الإلهـية لوضع هذا الكتـاب وهو إن شاء الله فـيه فائدة لـلمريد السـالك والعـارف وكل من يطلب طريق الحق ، ويقف على حق الـيقـين ، ويحاول أن يعرف قدر نفسه وبماذا أكرمـه الله ، فلا يعرج على الأكوان ليعرف بل يجاهد ويسعى فى طلب المعـرفة اليقينية والعلوم اللدنية ، يـقول سيدنا أبو المواهب الشاذلى :

وما البحـــث فى الآثار إلا مُبعــــــد عن المقصد الأسنى من الغـاية القصوى

فلا تقنــــعن بالقشـــــر دون لبـــابه ولا تحتجب بالباب عن حضرة النجوى

واعلم أن قـدر الإنسان الكامل عـظيم ، وخطره جسـيم ، ولكن الدنيـا أخذت الإنسـان وغرته وأعمـته عن حقـيقة وجـوده فعاش إنسـانا فى الصورة الظاهرة ، وحيوانا فى الحـقيقة ولو عرف الإنسان ما يُراد منـه ، لما أضاع نفساً من أنفاسه فى الغفلة والاشتغال بما لا يعنيه .

قـدْ رشّحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وأدعو الله تعالى أن يعيننى على كشف اللثام عن مـعارف هذا الإمام الكبير والعارف الخطير ، الذى غرق فى بحاره كبـار العارفين ؛ فما بالك بالمتطفلين أمثالى !!.

ونشرع بعون الله فى ذكر محتوى الكتاب :

محتوى الكتاب

★•★•★

الباب الأول

التصوف

ورد فى تعريف التصوف مئات التعاريف ، وهى فى الحقيقة إذا جمعت معاً ، كانت تعريفاً للتصوف ، فكل عارف بالله عرّف التصوف بما غلبه عليه حاله أو مقامه ، ويمكن تلخيص ذلك فى القول بأن التصوف هو اتباع الكتاب والسنة ، حباً وشوقاً وتولهاً بالله ورسوله ﷺ ، لا لأجل غرض أياً كان هذا الغرض ، فالغرض فى التصوف مرض ، فيؤدى العبد آداب العبودية وخدمة الربوبية ، ويرى أنه قائم بالله ، فإذا رأى أنه أدّى العبادات بنفسه سقط على أم رأسه ،وسلوك الطريق صعب وشاق يقول أهل الله : الله عظيم ، وطالب الله عظيم ؛ فتعبه عظيم ، وراحته عظيمة ، والبداية والنهاية فى اتباع الكتاب والسنة والاستمرار على ذكر الله بعد انجاز العمل الدنيوى الذى يتكسب السالك منه لقمة العيش بكد يده وتفريغ القلب من جميع الخواطر ، وعدم الوقوف مع أىّ شئ من ظلمات كانت أو أنوار مع اتباع شيخ عارف كامل متمكن ، مأذون بالتسليك ، وهو أهم أركان الطريق ، وبدونه لا معرفة ولا وصول ، وتعبد السالك تعظيماً لله تعالى ، لا يريد وصولاً ولا قرباً ولا راحة ولا فتحا ، بل يعبد الله لله بالله ، فإذا تراءى له شئ فى المنام أو اليقظة لا يركن إليه ، ولا ينتظر وقوعه ،فذلك قاطع كبير فى الطريق ، يقول سيدنا رسلان الدمشقى : **« من عبدنا به له طردناه ، ومن عبدنا به لنا أعميناه ، ومن عبدنا بنا لنا بصّرناه »** وهذه الحكمة خلاصة السلوك .

ومن شأن المريد الذل والمسكنة على باب الله : والذكر هو العمدة فى الطريق ، وكما يقول الإمام القشيرى فى رسالته :**« الذكر منشور الولاية »** ، ويتدرج المريد فى السلوك شيئاً فشيئا ، ويتداركه الله بالجذب من وقت لآخر ، ولا بد من الجذبات للسالك ، فالمجاهدة وحدها لا تكفى ، وعليه أن يصبر على الابتلاء من مرض وفقر ، وأذى الخلق له من قريب وبعيد ، فلا بد للمريد من ذلك حتى يصطفيه الله ، إن كان من أهل العناية ، والمدار كله على السابقة الأزلية والعناية الربّانية .

والوصول إلى الله والدخول عليه يكون بأوصاف العبودية من ذل وفقر وضعف وجهل والإحساس بذلك ، فتلك صفات العبد ، وليس بأوصاف الربوبية (كما يظن من لا علم له بالحقائق) من عزة بالعبادة وقدرة وإرادة ، وإن كانت هذه الصفات لازمة للسالك ، ولكن عليه أن يراها عارية عنده من الله .

وأجمل صفات المريد الذُلّ والمسكنة ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ ، ومن استشعر العز والغنى فليس من أصحاب الصدقات ،ونعنى بالصدقات النفحات الإلهية ، والمعارف اللدنية التى لا يدخلها شك أو ريب، وإذا سلك المريد على يد شيخ كامل ، ولم يحدث له أدنى ترقى فلا يتزلزل بل يصبر ، فالفتح أمر لا بد منه سواء فى الدنيا أو الآخرة ، كما قال بذلك الشعرانى فى قواعده ومننه، ولا تقل: إن الفتح يحدث للجميع بعد الموت، نحن لا نقصد كشف البصيرة ، ولكن نقصد معرفة العلوم الإلهية ، التى يحتاجها العبد فى الآخرة ، فالجاهل بهذه العلوم فى الدنيا ، جاهل بها فى الآخرة .

وإذا قادت المقادير المريد إلى شيخ غير مأذون بالإرشاد من أستاذه أو من الله ورسوله ﷺ فليعتبر ذلك محنة وابتلاء ، وبصدقه وإخلاص نيته يعرِّفه الله عن قريب بمن يأخذ بيده ، فإذا تأكد له أن الشيخ من المدّعين الكاذبين ، فعليه بتركه ، وما أكثر المتمشيخين الجهلة بالتسليك ، وبألف باء الطريق فى هذا الزمان ، بل فى كل زمان ، ولا يغتر المريد بما يظهر على أيدى الشيوخ من خوارق العادات ، بأن يخبره بأمر غيبى أو يشفيه من مرض ، حسى أو نفسى ، أو يطرد عنه عارض من الجن أو غير ذلك ، فهذه الخوارق تحدث لأصحاب الرياضات النفسية فى كل ملة ودين حتى الكفار ، كما صرح بذلك أغلب العارفين منهم الأمير عبد القادر فى كتاب المواقف ، وسوف نتعرض لهذا الأمر بالتفصيل فى هذا الكتاب .

وأكبر الكرامة هى الاستقامة ، واتباع الكتاب والسنة ، والتحلى بمكارم الأخلاق ، ووظيفة الشيخ تعريف المريد بالله ، وتقويمه على الكتاب والسنة ، فإذا لم يحصّل المريد ذلك فلعدم صدقه أو عدم تمكن الشيخ ، وعلى المريد أن

ينصرف عن الشيخ الجاهل ، كما صرح بذلك أحمد بن مصطفى فى كتابه المنح القدوسية ، وهو شرح لمنظومة عبد الواحد بن عاشر فى أركان الإسلام .

ويقول شيخنا الإمام محمد زكى إبراهيم :

ليس التصوف رقص الراقصين	ولا طبل وزمر وتصخاب وتهييج
ولا هو الذكر بالألفاظ ساذجة	محرفات ولا صعق وتشنيج
ولا مواكب رايات ملونة	فيها لما يغضب الديان ترويج
هو الكتاب وما جاء النبى به	وكل شىء سوى هذا فممجوج
إن التصوف سر الله يمنحه	من قد أحب وحب الله تتويج
إن التصوف تحقيق الخلافة	فى أرض الإله وإلا فهو ممجوج

أما ما يختص بكتب التصوف التى وضعها العارفون أصحاب المقامات العالية ، فقراءتها لا بد أن تكون تحت إشراف الشيخ المُربّى أو أخ صالح سالك وسادتنا العارفين لم يضعوا هذه الكتب من باب البحث والتفكير والتأليف ، بل أغلب كلامهم فتوحات إلهية أثبتوها بإذن إلهى لإرشاد عباد الله ، وهى رسائل لأصحابهم ومريديهم ، ويكفى أن تعرف أن أضخم وأعظم كتاب فى التصوف وهو الفتوحات المكية لابن عربى ، عبارة عن رسالة لأصحابه وتلاميذه . . يقول الشيخ الأكبر : « قيدت هذه الرسالة اليتيمة التى أوجدها الحق لأعراض الجهل تميمة ، ولكل صاحب صفى ومحقق صوفى ، ولحبيبنا الولى وأخينا الذكى ، وولدنا الرضى عبد الله بدر الحبشى اليمنى ، وسميتها رسالة الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المالكية والملكية . . . . »[1] ، وكتاب الفتوحات يصل فى ضخامته إلى ما يقرب من ثلاثة الف صفحة من القطع الكبير ، فقد يفقد المريد شيخه لظروف طارئة ، ويكون فى حال أو مقام لا يعرف أدبه مع ربه يصل إلى مرتبة الأخذ عن الله والأرواح القدسية فينفعه الكتاب فى هذه الحالة .

(١) الفتوحات ، ابن عربى، المجلد الأول ، ص ١٠ .

وكتب الصوفية ليست للتثقيف وجمع المعارف دون ذوق وتحقيق ، كما هو شأن المؤلفات الأخرى ؛ بل هى علاج للمـريد ، تقومه إذا فقد الطبيب ، ولا يمكن بأى حال الاكـتفاء بها فى السلوك بل لابد من الشـيخ ، وكل سالك لم يصل إلى مقام فى معراجه الروحى ، عليـه أن يترك قراءته فإذا قرأه فمن باب التشويق ورفع الهـمة ، ومعرفة النقص فى حـاله ، وإلا فخطر القراءة فى هذا المقام الذى لم يبلغ السالك الوصول إليه محتوم وقوعه ، لأن للنفس والشيطان تلبيـسات وأوهام ، فيكتـسب السالك من القـراءة حال معنوى خـيالى وليس حقيقى من لذّة الاطلاع ، فيجـرفه الهوى إلى القاع ، ويظن أنه من أهل المقام وينتقل إلى غـيره . . وهكذا ، وهو واقف لم يبرح مقـام النفس اللوامة وربما الأمارة .

وأغلب الإرشادات والـعلوم الخاصة بالسـلوك تؤخذ مشـافهـة من صدور الأولياء والاجتـماع بهم ، لأنهم يعرفـون علة المريد ولو طالع المريد كل كتب التصوف ، لم تزل علتـه بل ربما تعظم وتتضخم وتهلكه دون أن يدرى ، ومن هنا حذر سادتنا من قراءة بعض كتب التصوف التى ترمى إلى مقامات ومعارف بعيـدة عن إدراك المريد ، فيضل بـها أكثر مـن أن يهتدى ، مـثل تحذيرهم من قراءة الفتوحـات المكية لابن عربى ، ومؤلفات ابن سبـعين ، والإنسان الكامل للجيلى ، وأشـعار ابن الفارض ، ومواقف النِّفـرى ومخاطباته ، وأمـثال هذه الكتب التـى تفـيض بالفـتح الإلهـى والعلم اللدنى والحـقـائق والـتلويحـات والإشارات .

وهذه الكتب كـما ذكرنـا تفيد السـالك الذى تخلص من شـهوات نفـسه وأماتها وأتقن مقـام الذل والانكسار والتواضع ، ولاحت له بعض بوارق الفتح وإن قلَّت ، أما كتب السـلوك التى تحث على المجاهدة وتطهير النفس ومـعرفة عيوبها أمثال : الإحياء للغـزالى ، والرسالة للقشيرى ، والوصايا لابن عربى ، وغير ذلك . . فـلا ضرر فى مطالعتهـا والعمل بما فيهـا حتى يصل المريد إلى مقام الإخـلاص ، ويتبع القرآن والسنة بنية مسـتقيمة وقلب سليم ، كـما كان حال الصحـابة ﷺ من كونهم على الفطرة وصدق الحال ، فلم يحـتاجوا إلى هذه الكتب ولذلك لم توضع فى زمانهم .

وفهم إشارات العارفين ، يستعصى على بعضهم البعض ، فكيف بنا نحن وها هو الأمير عبد القادر يقول فى (الموقف ١٧٨) من كتاب (المواقف) حين يشرح مقام الحيرة عند الأولياء ، وهى حيرة المعرفة بالله ، لا حيرة الجهل السائدة فى عامة الناس . . يقول : قال إمام العارفين محيى الدين الحاتمى ﵁ : « إن من أولياء الله من أزال عنه مقام الحيرة فيه » ، وأنا عبد الله ما فهمت هذا ولا عرفته كيف يكون .

ورأى الأمير عبد القادر فى هذا الموضوع واضح فهو يُحذِّر من مطالعة الكتب المشحونة بأسرار الألوهية ، والتوحيد والحقائق ، ويحذر من عرفها أن يذيعها لغير أهلها .

يقول فى (الموقف ٥٨) : كتب القوم مشحونة بذم هذا والنهى عنه وقد شاهدنا فى زماننا من المريدين من سمع بعض أسرار الألوهية وبعض الحقائق من مشايخهم فصاروا يتكلمون بها فى المجالس العامة ، وظهرت منهم أمور فظيعة من الجسارة والقباحة والتهجم على الجناب الأعلى الإلهى والتكلم بكلمات ما عرفوا لها أصلا ولا ذاقوا لها طعما ؛ بل نظن والعلم عند الله ، أن مشايخهم تلقفوها من الكتب ومن غيرهم ولو عرفوا حقيقتها لصانوها ، ورضى الله عن سيدنا العارف الكبير أحمد الرفاعى حيث يقول :

ومستخبر عن سر ليلى رددته بعمياء من ليلى بغير يقين

يقولون:حدثنا فأنت أمينها وما أنا إذا حدثتهم بأمين

وأنا الجاهل العاجز كاتب هذه السطور ، نهانى شيخى الإمام محمد زكى إبراهيم عن قراءة الفتوحات وعنقاء مغرب لابن عربى ، ورسائل ابن سبعين ، والإنسان الكامل للجيلى ، فى بداية معرفتى بسيادته ، وكان يحثنى على قراءة الإحياء للغزالى والعمل والجهاد والعبادة .

فالغرض من مؤلفات سادتنا العارفين أن يعمل المريد ويطبق ما فيها ليترقى فى سلوكه حتى يصل إلى مقام ينال فيه علوماً ومعارف لا تسطر فى كتاب ولا تحمل معانيها العبارة .

ولا بد لمن يكتب عن الصوفية وأحوالهم ومؤلفاتهم أن يكون له صلة بهم إن تعسَّر عليه السلوك ، فليكن له نصيب من التبـرك بمجالستهم ، والاستئناس بأنفاسهم ومددهم وما حدث من تحريف لمقاصد العارفين .

وسوء فهم التصوف كان نتيـجة خوض كل من بَعُد عن أهله فيه ، وأخَذَه من الكتب ، ثم كـتب عنه أمثـال الأدباء والفلاسـفة والمسـتشـرقين وأسـاتذة الجامعات، وكل الذين ظنوا أن التصوف لون من ألوان المعرفة والثقافة والتراث، وتلمس ذلك بسـهولة إن أردت السلوك ، وقـرأت صفـحات مـعدودة لأحـد العارفـين فى موضوع صوفى ، وليكـن المحبة الإلهيـة مثلا ، ثم قرأت كـتابًا ضخمًا فى مئـات الصفحات لأستاذ جامعى أو مسـتشرق أو فيلسوف فى نفس الموضوع فسوف تشعر بحال من الصفاء يسرى فى نفسك يدفعك نحو حب الله تعالى من قراءتك لما كتـبه العارف بالله ، وتشعر بالتشغيب والتـشتيت والحيرة والبعد عن الله من كلام غيره .

وقد صدق الأستاذ الفاضل محمود محمود الغراب حين قال :

أحب أن أشيـر إلى ما نشره الدكـتور عبـد الرحمن بدوى عن المسـتـشرق الأسبـانى « آسين بلا ثيوس » فى كـتابه « ابن عـربى - حياته ومـذهبه » التى اعتبـرها الدكتور بدوى أنهـا أوفى ما كتب عن هذا الصوفى العظيم ، فـترجم كتاب هذا المستشرق الذى هو قسيس كـهنوتى كافر برسالة ونُبوّة محمد ﷺ غيـر مؤمن بها ، فـأنى له أن يفهم ويشـرح أحوال الولاية فى الأمة المحـمدية وشدة خفـائها ؟! وقد عجز عن فـهم ما جاء به الشيخ بعض مـشايخ الإسلام مثل: ابن تيمية وأمثاله (١).

ويقول أيضاً :

ذكر المؤرخ الدكـتور عمر فـروخ فى كتابه « تاريخ الفكر العربـى » كلاما يتناوله العوام لا يستند إلى أى مرجع علمى معروف ، وقصة عن الشيخ الأكبر لا أساس لهـا من الصحة ، وفى كـتابه « التصـوف فى الإسلام » أتى فى هذا

---

(١) الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، محمود محمود الغراب ، ص ١٠.

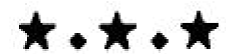
الكتاب بأقبح وأشنع من سقطته الأولـى ، وقلد من سبقه من الجاهلين ومن لا علم له ، واتبع فى نـظرتـه للتصـوف عمـوما وللشيخ الأكـبر خصـوصـاً أثر (زكى مبارك) ومن هو على شاكلته .

و عسى أن يطلع د. عـمر فروخ على كـتابنا « **شرح كلمـات الصوفـية** » فيتوب إلى الله تعالى وينوب قبل أن يعاجله الأجل . ا هـ (١) .

والخلاصة التى ننتهى إليهـا ، أن كل من أراد أن يعرف سيرة أهل الله مثل الأمير عبد القادر ، عليه أن يسلك طريـق التصوف بقدر استطاعته ويلازم أهل الله ويجالسـهم ويسألهم وإلا فسـيجد كـلامهم غريبـاً وأحوالهم أكثـر غرابة، ويؤول به الأمـر إلى سوء الظن بـهم ، ويعتـبر كـلامـهم خرافـات وأساطيـر ومبالغات شططا وجنوناً .

ولا يغتـر القارئ بأسمـاء المؤلفين وشهـرتهم : قال سيـدنا على كرم الله وجهه : « **لا تعرف الحق بالرجال ، اعـرف الحق تعرف أهله** » . . وإن أردت أن تـتـعلم القتـال فعلى يد مـحارب فى مـيدان المعـركة ، وليس على يـد مؤرخ للحروب ، وإن أردت أن تـتـعلم الطب فعلى يد أسـتاذ فيـه ، وليس على يد أديب يكتب عن الأطباء ، وهذه حقائق لا تحتاج إلى أدلة وبراهين .

والكلام عن التصـوف وأعدائه يطول ، وعلى المنصف التسليم والتـصديق والتجـربة والذوق ثم يحكم بنفسـه ، ولا سبيل لمن حـاد عن طريق القوم إلى فهم تصوف الأمـير عبد القـادر وغيره من العارفـين ، والأفضل لمن لم يسلك الطريق أن لا يقرأ كتب القوم أو يكتب عنهم .



---

(١) المصدر السابق ص ٦ ,٧ ,٨ ,٩ . . وقد ذكـر الأستـاذ محمود الغـراب مقـــالات د . عمر فروخ بالتفصيل .

الباب الثانى

حياة الأمير عبد القادر

ولد الأمير عام ١٨٠٧م الموافق يوم الجمعة ٢٣ رجب ١٢٢٢هـ في قرية « القيطنة » من أعمال « وهران » فى الجزائر ، وهو السيد الناسك الزاهد المتورع ، ينتهى نسبه إلى الإمام الحسن السبط بن الإمام علىّ بن أبى طالب .

كان معتدل الطول ، ملئ الجسم ، شعر رأسه كث أسود ، أقنى الأنف ، له نظرة نفاذة ، بارعا فى تصريف الأمور ، فيه عناد أهل البادية ، مُحبًا لزوجاته ، وخصوصاً ابنة عمه، أضبط أى يعمل بشماله ما يعمله بيمينه .

نشأ الأمير فى رعاية والده (محيى الدين) الذى كان شيخاً للطريقة القادرية ، وحفظ القرآن الكريم ، وتعلم الفقه ، ثم سافر إلى وهران عام ١٢٣٦هـ ، وكمل دراسته في الأدب والفقه والتفسير والحديث والنحو ، بعد أن أتقن جزءًا منها على يد والده ، وسلك الطريق الصوفى على يديه أيضاً ، ثم سافر إلى الحج عام ١٢٤١ هـ ، وعند عودته أخذ الطريقة النقشبندية ، وهو فى دمشق على الشيخ خالد النقشبندى ، ثم زار بغداد وجدد العهد على يد الشيخ محمود القادرى نقيب الأشراف فى ذلك الوقت ، إلا أنه انتسب فى النهاية إلى العارف الجليل محمد مسعود الفاسى الشاذلى حين سافر حاجاً سنه ١٢٧٩ هـ حيث أقام فى مكة سنة ونصف مقبلا على الخلوة والعبادة ، وليس قصدنا من هذا الكتاب سرد الأحداث والتواريخ فقد سبقنا إلى ذلك كُتَّاب من الشرق والغرب ، وإنما غرضنا عرض حياة الأمير الصوفية ، والوقوف عند كل ما يفيد المريد المبتدئ والمتوسط ، والشيخ المربى من حياة الأمير .

وانطلاقا من هذا المنهج نقول : إن الأمير أخذ أكثر من طريقة ، وهذا الأمر له ضوابط عند أهل الله ؛ فلا يجوز الانتقال من شيخ مربى كامل إلى آخر إلا إذا كان هذا الانتقال عن إذن باطنى أو إرشاد الشيخ بأن يقول للمريد : فتوحك ليس عندى فاذهب إلى فلان ، ولا ينتفع المريد إذا جمع فى سلوكه بين شيخين .

أو أن يكون المريد لسوء حظه أخذ عن شيخ مدعى لا صلة له بسلسلة أهل الله ، وتشيخ بنفسه فهذا يقتل العليل ويمرض السليم كما يقول ساداتنا؛ فعلى المريد تركه إلى غيره أو أن يموت الشيخ ولا يترك خليفه له ، أو أن يكون السالك وصل إلى مقام الكمال النسبى وانتهى فطامه فله أن يأخذ أكثر من طريقة علي سبيل التبرك وزيادة المدد ، وهذا ما حدث للأمير فقد أخذ عن مشايخ أجلاًء لا يقدح فيهم أحد .

ونجد أن الأمير قد عانى متاعب السلوك ومجاهداته المعروفة ، وأن فتحه الكبير وعز النهايات بعد ذل البدايات كان بعد أخذه العهد من الشيخ محمد مسعود الفاسى .

ويشير الأمير إلى ذلك فى قصيدته التى قال فيها :

ليالى صدود وانقطاع وجفوة	**وهجران سادات فلا ذكر الهجرُ**
فأيامها أضحت قتاما ودجنة	**ليالى لا نجم يضئ ولا بدر**
فراشى فيها حشوه الهمّ والضنى	**فلا التذّ لى جنب ولا التذّ لى ظهر**
ليالى أنادى والفؤاد متيم	**ونار الجوى تشوى لما قد حوى الصدر**
أمولاى طال الهجر وانقطع الصبر	**أمولاى هذا الليل هل بعده فجر ؟!**
اغث يا مغيث المستغيثين والهاً	**ألمّ به من بعد أحبابه الضرّ**

... إلى آخر القصيدة

فترى الأمير رغم كبر سنه ما زال يعانى من الصد والهجر ، وعدم حصول المراد ، فهو فى ليل مظلم ، يخشى أن لا يطلع فجره ، وفى عذاب البعد والحجاب ، ينادى ويدعو : اغث يا مغيث عبداً محباً يطلب مقام العبودية، أحاطت به الأغيار من كل جانب ،وأثقلت كاهله الهموم والغموم والمحن ، لا راحة له فى نوم أو يقظة .

اعلم يا أخى أن هذه سنة الله فى أحبابه ، لا يصطفيهم إلاّ بعد أن يحرقهم بنار الابتلاء ، ويسلط عليهم البعيد والقريب ، والعدو والحبيب ، حتى لا

تبقى فيهم بقية لغير ربهم ، فلا يعرفون أباً ولا أماً ولا خالاً ولا عماً فينفردون بربهم ، قامت قيامتهم ، وماتوا عن غير محبوبهم ، وعاشوا بحبهم وآية ذلك من كتاب الله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [سورة يوسف : ١١٠]

ولا يتبادر إلى ذهنك أن الرسل عليهم السلام يصيبهم اليأس ، لأنهم أهل الصبر والتفويض والتسليم والعصمة ، ولكن يأسهم يكون على أتباعهم خوفاً عليهم التكذيب ، فالرسل أهل شفقة ورحمة بالخلق .

وفى حال الأمير عبرة وفائدة لسالكى الطريق الذين ييأسون من أول قدم يصبهم فيه الشدة والذل ، وها هو الأمير رجل شريف من أهل البيت ، يسكن تحت محن الأقدار وينتظر الفرج القريب ، وجاءه الفرج بعد أن تجاوز سن الخمسين عاماً ، ففتحت له أبواب الرحمة والمعرفة ، وازهرت له رياض المحبة والقرب فقال :

فيلقى مناخ الجود والفضل واسعاً	ويلقى فراتا طاب نهلا فما القطر
ويلقى رياضاً أزهرت بمعارف	فيا حبذا المرأى ويا حبذا الزهر
ويلقى جنانا فوق فردوسها العلى	وما لجنان الخلد أن عبقت نشر
ويشرب كاساً صرفه من مدامه	فيا حبذا كأس ويا حبذا خمر

لكن هل ينتهى ابتلاء العارف بعد الفتح الكبير،ودخوله جنة المعرفة التي لو عرفها الملوك لقاتلوا عليها أصحابها بالسيوف ، الحقيقة أنه لا راحة لعارف حتى يلقى ربه ، وكلما ارتقت معرفة العارفين زاد بلاؤهم ، ومعراج العارف وقربه من الله يكون عادة بالبلاء ، والدنيا دار التكليف والعمل ؛ فأين الراحة ؟!.

يقول سيدى على الخواص لتلميذه سيدى عبد الوهاب الشعرانى :

العارف العامى يشرب فى هذه الدنيا العسل واللبن ، والعارف المحقق

الكامل يذوق فيها المُرّ والحنظل ، وشاهد ذلك قول الرسول ﷺ لأصحابه « لوعرفتم ما أعرف لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش » فانظر من القائل ؟ ومن يخاطب ؟ ، وانظر إلى حالك وحالى ، واشتغل بخدمة ربك .

لقد لازمت المحن الأمير ، منذ مطلع شبابه وفتوته ، فقد اعتذر والده عن الإمارة لكبر سنه ، وعدم قدرته على ذلك الثقل الكبير الذى لا يقدر عليه إلاّ مثل عمر بن عبد العزيز ، كما قال جرير :

حملت أمراً عظيما فاصطبرت له وقمت فينا بأمر الله يا عمرا

قال والد الأمير لمن طلبوا مبايعته :

ولدى عبد القادر شاب فطن ، صالح لفصل الخصومة ومداومة الفروسية مع كونه نشأ فى عبادة ربه واعتقدوا أنى فديت به نفسى لأنه عضو منى وما أكرهه لنفسى أكرهه له كما قال عمر - رضى الله عنه - عند موته : لا دخل لولدى عبد الله فى الولاية إنما له الكلام فى المشورة فقط ، بحسب آل الخطاب أن يعذب منهم رجل واحد « يعنى نفسه » .

ويواصل الشيخ محيى الدين كلامه : غير أنى ارتكبت الضررين حين تيقنت الحق فيما قلتموه مع تحققى أن قيام ولدى بالإمارة أشد من قيامى وأصلح فراعيت عدم التفريط والإفراط ، وإنى عالم بأنه لمعالج كبيركم وصغيركم وأثبت منى وأقدر على مكابدة المشاق والتعب والسهر وغيرها من الأمانة ، فكونوا معه يداً وعضواً . ١ . هـ [١] .

وانعقدت البيعة للأمير عبد القادر فى آخر شعبان سنة ١٢٤٨هـ - ١٨٢٣ م

---

(١) سيرة الأمير عبد القادر - مصطفى التهامى ، ص ١٣٠ .

وعمـره خمسة وعـشرين سنة [١] ، تولى الأميـر الإمارة ، والعـدو الفرنسى الغـادر يحف على الجزائر بجـيوشـه وقدراته وإمكاناته العـسكرية ، والقبـائل الجزائرية تتناحر وتتنازع ، وبعضهـا يعلن الحرب على الأمير الشاب ، ولك أن تتصـور كيف يواجه الأميـر فى هذا العمر كل هذه الأعبـاء مع سلوكه الطريق الصوفى قد يكون ذلك شاقاً لإنسان يواجـه المتاعب بنفسه وحوله وقوّته ولكنه يسير على من يقوم بربه وعون مولاه وتأييده ونصره ، وكان هذا وصف الأمير فهـو الذى تربى على القرآن والسنـة وذاق معنى « لا حـول ولا قـوة إلا بالله » التى هى كنز تحت الـعرش ، وأتقن مـقـام التـوكل فـاعـتمـد على الله باطنا وظاهرا ، وأخذ بأرقّ الأسباب فتولاه الله تعـالى . وجاءته البشارات حتى قبل أن يتولى الإمارة .

رأى الأمير فى مـبشرة ، وهو فى بغداد ، فى حضرة الـقطب الغوث عبد القادر الجـيلاني أن مَلَكاً وضع مـفتاحاً فـى يده وأخبره أن يسـرع بالعودة إلى وهران وعندما سأله عـما يفعله بهذا المفتاح أجابـه المَلَكُ : إن الله سيوجهك. وأوَّل الأمير المبشرة بأن سيدنا عبد القادر الجيلانى اختصه لتولى وهران [٢] .

فمـاذا تنتظر من عبد أحـبه الله تعالى وأمـده الأولياء بنفـحاتهم ، وطيب أنفاسهم وأعطاه الله الحكمة ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ .

عزف الأمـير عن لقب « السلطان » كى لا يثيـر ضغينـة سلطان المغرب

---

(١) المؤلفات الكثيـرة عن الأمير اختلف كُتابها فى الـتواريخ وبعض الأحداث ، وأصدق كتاب فى نظرى هو كتاب سيرة الأمير لمصطـفى التهامى ، لأنه ابن عمته ورفيقه فى الجهـاد ورجل من أهل الله العارفين ، ومن حـسن الحظ أن يصدر هذا الكـتاب منذ عام فـقط ، وكان يطلق عليه المخطوط الكبـير وينسب إلى الأميـر عبد القادر نفـسه حـتى قام د . يحـيى أبو عزيز بتـحـقيق هذا المخطوط ،وتمّ نشـره لأول مرة عـام ١٩٩٥م ، وهو الذى اكـتشف أن المخطوط بقلم مـصطفى التهـامي وليس من وضع الأمير عبد القادر ، والمخطوط لا يحمل اسم المؤلف ، مما أوقع أغلب كتّاب التاريخ فى خطأ نسبته إلى الأمير ، وقد اعتمدت عليه فى ذكر أكثر الحوادث فى حياة الأمير قبل سفره إلى دمشق .

(٢) الأمير عبد القادر الجزائرى ، بسام العسلى ، ص ٣٣ .

واكتفى بلقب أمير ، ثم بدأ ينظم دولته .

وأول شئ ابتدأ به : النظر فى أمـر القضـاة فى كل موطن ، والسـؤال عن المؤتمنين فى كل قبـيلة ، ليعينهم لـسعاية وجبـاية أموال الصدقـات من مواشى وغيرها ، بعد أن ولّى كبير كل وفد على قبيلته عملا بالأثر الوارد عن عمَر بن الخطاب ﷺ [1].

وأنشأ الوزارة التى تـكونت من رئيس الوزراء ، وتولّى هو هذا المنصب ، ونائب له ، ووزراء خارجـية ، وخزانة ، وأوقاف وزكاة ، وكـانت من أفضل الوزارات التى عرفـها القرن التاسـع عشر ، وكون مـجلس شورى ، وبدأ فى تنظيم الجيش ، وتدبير مرتبات الجنود ،وكان أفراد جيشه (١٦ ألف) مقاتل ، وأقام مصانع للأسلحـة ، ومصنعاً لصك النقود الفضية والنحـاسية، مكتوب على أحد وجهـيها : باسم الله ، نعم المولى ونعم النصيـر ، والوجه الآخر : ضرب فى (تاقـدامت) بأمر الأمير عبـد القادر ، وكانت (تاقـدامت) مركزاً لقيادته ، وأنشأ المدارس لتعليم القبائل مجانا فكان أول من جعل التعليم مجاناً فى العـالم العربى ، وكـانت المدارس تعلم الأطفـال العبـادات وحفظ القـرآن وفروض الإسلام والقراءة والكتابة والحساب .

وهذا هو توكل أهل الله : يدبرون شـئونهم بربهم لا بأنفـسهم .. فـافهم قول سادتنا :

لا تــدبـــــــر لـك أمـــراً	**فـأولـى التـدبيـر هلــــكى**
واتـــــــرك الأمـــر إلـيـنـا	**نـحـن أولـى بـك مـنـك**

أى خذ بالأسباب وعلّق قلبك بالله فهو المدبر لا أنت .

لنا وقـفة فى هذا الموضـوع لسالكى الطريق الذين يـفهمـون ترك التدبـير بطريقة تدفـعهم إلى التكاسل وترك العـمل .. ومن هنا قال أهل الله : المريد فى بدايته قدرى ، وفى نهايته جبـرى ، ومع أن مذهبا القدرية والجبرية باطلان

---

(١) سيرة الأمير ـ مصطفى التهامى ، ص ١٣١ .

ومرفوضان ، إلا أن إشارات العارفين بهذا الكلام تدفع المريد في بدايته إلى المجاهدة والرياضة وقهر النفس والشيطان وشحذ الهمة ، حتى إذا ماتت نفس المريد وتخلَّص من شهواته وصفاته المذمومة قالوا له : أنت جبرى أى سلِّم وفوض فلا حول لك ولا قوة . . وهذا مقام البقاء بعد الفناء فالسالك هنا يتحرك بالله ، ويسكن بالله ، ويغضب لله . ويدبر أموره بالله ، مثل ما كان حال الأمير فافهم تسلم .

منع الأمير التدخين ، وقال في ذلك : منعت التدخين لأنّ جنودى فقراء ولذلك كنت حريصاً على أن أبعدهم عن عادة معروفة بزيادة الفقير فقراً ، وقد نجحت في كسب طاعتهم .

★ حربه ضد المنشقين :

لم يبتل الأمير بأعدائه الفرنسيين فقط ، بل ابتلى بقبائل من وطنه فقد حشد له « سيدى العريبى » زعيم قبيلة « فليته » قوات من عشيرته ، وأعلن صراحة أنه سيواجه ابن محى الدين الضموح ،فباغته الأمير بقوة تضم خمسة آلاف مقاتل ، وقضى على هذه الفتنة ، وتعهد هذا المنشق بالطاعة ، وقدم ابنه رهينة لدى الأمير ، واستمر الأمير في محاربة كل القبائل المنشقة مثل قبائل عكرمة ، وبنى مديان وغيرها ، ولم تلبث هذه القبائل في عصيانها طويلا فقد أظهرت الندم والتفَّت حول الأمير ودعمت جهاده .

لكن الطامة الكبرى والابتلاء الشديد والضربة القاسية جاءت من عمه وأخيه مصطفى فقد استثاروا القبائل ضده ، وحاول الأمير استمالتهم وارضاءهم ، ولكنهم رفضوا الإذعان وصمموا على مجابهته فحاربهم الأمير وتغلب عليهم وطلب عمه وأخوه الأمير مصطفى العفو فعفا عنهما .

واعلم يا أخى أن أهل الله كما ورثوا عن الرسول ﷺ بعض أخلاقه وشمائله على قدر استعدادهم ، ورثوا عنه ﷺ أيضاً الأذى من أهلهم وقرابتهم، وكلنا نعرف أذى قريش للرسول ﷺ فإن ابتلاك الله بهذا البلاء ، فلا تيأس ولا تتعجب واصبر واحتسب ، واستأنس بقول شيخنا وقدوتنا

الإمام (محمد زكى إبراهيم) حيث يقول فى ديوان المثانى :

لا تُرعْ إن جــاهر الأهــــل ... وقــالوا : أين فــضــــلك ؟
أنكـــر النــــاس لما تأتى ... من الأفــضــــال أهلك !

وقال « رضى الله عنه » :

أهلى وهم أهلى بغـير جريرة ... للموت قبل الموت قد منحونى
فإذا قضيــت فنــاد كل أحبتى ... أنا لم أمــت لكنـهم ذبحــونى

وقال أيضاً :

قلــت إذ جــــاء يشــــكو ... لومــهـــم والظــلم لــومـــه
أجـهـل الناس جــمـيــعــاً ... بـــــولـى الله قـــــومـــه

ولم يسلم ولى من أولياء الله من هـذا الأذى ، وأذى البعـيـد والقـريب للولى يعتبر من المنن الربانية التى تدفع السالك إلى الله ، فلا يركن إلى سواه، ويترك الكل لينال الكل .

★ حرب الأمير ضد التيجانية :

الفـتنة التى وقـعت بين الأميـر وبين أولاد التـيجـانى فى « عين ماضى» تتلخَّصُ فى أنهم رفضوا البيعة للأمير ، فحاصر « عين ماضى » ستة أشهر عام ١٢٥٦ هـ ، وحدثت بينهم مصادمات ومات كـثير من الفريـقين ، وكانت قرية « عين ماضى » مقـر الأسرة التيجانيـة ، لها مكانة دينية وسيـاسية واجتمـاعية واقتصادية ، وقـد ضايق الحكام الأتراك سيدنا أحمد التيـجانى فرحل إلى فاس أهله وأولاده ، ورحب به السلـطان سليـمان بـن عبـد الله ، وتوفى سـيـدنا التيجانى بفاس عام ١٢٣٠ هـ .

وعاد أولاده رضي الله عنهم إلى (عين ماضى) ، ولمّا طلب الأمـير البـيعـة منهم رفضوا واعـتصموا بـ « عين مـاضى » ، وحاربهم الأمير وانتهى القـتال بينهم بمعاهدة وصلح ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ .

وبعد ثلاثة أشهر كتب الأمير إلى الشيخ التيجانى « محمد الحبيب » رسالة اعتذار ، وطلب منه العفو عما بدر منه ، واتضح الأمر بعد أن نفذ قدر الله وإن سبب ذلك وشاية وسعى الشياطين والمنافقين بينهما ، ورد عليه الشيخ محمد التيجانى : وصلنى جوابك ، وبعد أن أدركت حقيقتكم وعلمت أن مادار بيننا إنما هو وشاية فقط وتدخل المفتنين بيننا ولهذا فإنى أرجو عفوكم عنا وهذه هدية متواضعة تصلكم مع ابنكم أحمد عساها تجدد الروابط الأخوية بيننا، وهكذا يتضح أن الساعين فى الفساد وأصحاب المصالح هم السبب فيما حصل ، وعلى الباحثين إعادة النظر فى مواقف الرجُلين معاً ، خاصة التيجانى الذى ظلمه الجميع [1] .

وقد تضاربت الآراء ، واختلف المؤرخون فى هذا الأمر وكل مؤرخ يكتب كما يرى ، ولا يستطيع أىّ مؤرخ مهما كان أن يتخذ موقف الحياد ، قال سيدنا محمد زكى إبراهيم :

قالوا هو التاريخ قلت   فكم تجنًّى أو كذب

ما كان وحياً إنما   كلٌّ بما يهوى كتب

والمتفق عليه حدوث خلاف بين الأمير وأسرة التيجاني ، والأمير وأولاد التيجاني من كبار العارفين والخلاف بين الأولياء موضوع يحيِّر المريدين وأهل الله ويترك ظنونا لا تحمد فى صدورهم ، وربما تزلزل اعتقاد بعضهم فى الأولياء ، ولا نغالى إذ نقول : إن ما يحدث بينهم من خلاف يشبه ما حدث بين الصحابة ﷺ ، فليس هناك ولى يصل إلى مقام الصحابى ، ولو كان هذا الولى قطب الغوث ، قال بذلك سيدنا ابن عربى وسيدنا على الخواص والشعراني وغيرهم ، ورغبة منَّا فى أن تطيب صدور أهل الله ونقطع دابر الظن السئ من نفوسهم نقول :

(١) اختصرت ماوقع بين الأمير وأسرة التيجانى من كتاب سيرة الأمير لسيدى مصطفى التهامى ص ١٠١ ، ١١٣ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ . واعتمدت على معاصرة المؤلف للحوادث ووصفها بنفسه .

إن كل عارف من أولياء الله ، يتجلى عليه اسم إلهى خاص به ، وإن كان له حظ من بقية الأسماء الإلهية ، ويقول الشيخ الأكبر فى الباب الثالث والسبعين من الفتوحات المكية : إن القطب هو عبد الله ، والإمامين عبد الرب وعبد الملك ،والأوتاد عبد الحى وعبد العليم وعبد المريد وعبد القادر[1]ا.هـ

وإن أردت معرفة المزيد عن تجليات الأسماء الإلهية على قلوب الأولياء فعليك بكتاب « العبادلة » للشيخ الأكبر ابن عربى ، وفى فلك هذا الاسم الإلهى تدور أحوال الولى ومقاماته وتصرفاته الظاهرة ، والأسماء الإلهية تختلف فى التأثير لحكمة إلهية ، فاسمه القهار غير اسمه الرحمن ، واسمه الضار غير اسمه النافع . . ومن هنا نشأ الخلاف بين كبار الأولياء أحيانا لا دائماً فهم أهل اتفاق وود ورحمة فيما بينهم وبين العالم كله ونؤيد هذا الكلام ، بما ورد فى كتاب « كشف الحجاب » لسيدى أحمد سكيرج المغربى التيجانى حيث يقول فى ترجمته لسيدى العربى الأشهب [٢] .

اختلف الأولياء فى المشارب . ومن سلك مقاما يرى أنه لم يسلكه أحد لقوة أنواره ، فلا غرابة فى عدم معرفة الأولياء بعضهم بعضاً ، وقد يكون الخلاف الواقع بينهم سبب هلاك من يحمله الفضول والدخول بينهم وموجباً لطرده ، وقد وقع خلاف بين الولى العظيم محمد المشرقى والشيخ الشهير بلقاسم الصومعى حتى كان يقول كل منهما فى الآخر العظائم ، فتلطف بعض المريدين مع سيدى محمد المشرقى ليعرف حقيقة ذلك فقال له الشيخ : أنا وهو كحجرى الرحى من دخل بيننا نطحنه غير أنى أقول : غفور رحيم ، وهو يقول : شديد العقاب ؛ فأشار إلى الحكمة الإلهية فى ذلك ، وأصل تلك المناقضة اختلاف المشارب » ا .هـ .

أقول : تجلى الأسماء على الولى يجعله مصطلماً تحت أنوار الاسم الإلهى فترى هذه الأنوار فى جسد ونفس وروح وقلب وسر الولى ، ولها ترتيب فى

---

(١) الفتوحات المكية للشيخ الأكبر ابن عربى ، المجلد الثانى ، ص ٦ .
(٢) كشف الحجاب ، سيدى أحمد سكيرج ، ص ٤٧٤ .

التجلى فأول مشهد من تجليات الأســاء أن يتجلى الله لعبده فى اسمه الموجود وأعلى منه الاسـم الواحد ، وأعـلى منه اسم الله . .

يقول سيدى عبد الكريم الجيلانى :

« إذا تجلى الله على عبـده بهذا الاسم « الله » يمحو الله اسم العـبد ؛ فإن قلت (يا الله) أجابك العبد (لبيك وسعديك) ، فإن ارتقى وتواه الله وأبقاه بعد فنائه كان الله مجيبا لمن دعى هذا العـبد ، ثم يتتابع التجلى على الترتيب من الاسم الله . . إلى الـرحـمن ، ثم الـرب ، ثم الملك ، ثم العـليم ، ثم القادر . . . وفى تجلى الذات يحدث العكس » .

ينادى المنـادى باسـمـهـا فـأجيبـه ... وادعى فـليلـى عن نـداثى تجـيـب
ومـا ذاك إلا أننـا روح واحـد ... تداولنا جسـمـان وهو عجيب
كـشخص له اسمان والذات واحـد ... بأى تنـادى الذات منـه تصـيب
فـذاتى لهـا ذات واسـمى اسـمـهـا ... وحـالـى بهـا فى الاتحـاد غـريب
ولسنـا على التـحـقيق ذات لواحـد ... ولكنه نفـس المحـب حـبيـب [1]

وأنا كاتب هذه السطور ، المسكين الغافل المحجوب لا أفهم هذا الكلام ، وليس لمثلى أن يقرأه فضلا عن أن يكتبه لجهلى بأحوال أهل الله، ولكننى ذكرته ليعرف القارى مـا هى الولاية الحقيقية وليعرف أيضـاً أن تجلى الأسماء يحدث لأطفال الطريق المبـتدئين ، وليس هو من علامـات الولى الكامل، فوراء ذلك تجلى الصـفات ، وهو أيضاً لأطفـال الطريق المحجـوبين ، وإن اطلعت على قراءته سـمعت عـجباً ، ووراءه تجلى الذات ، وهو للولى الـكامل الذى صار رجلاً ، وقد ذكـرت ذلك أيضاً لأكشف لك يا أخى حقيـقة السلوك ، وما هو مفهوم الولاية ، فقد ذقت المرّ ، حين تعـرفت على المدَّعين أصحاب الشياطين ولهم شهـرة فى عالم الارشاد ، عـرفتهم من أقصـى شمال مصـر إلى أقصى جنوبها ، ولهم معى حكايات احتاج إن ذكرتها كلها إلى كتاب مستقل ، وأذكر

(١) الإنسان الكامل ، عبد الكريم الجيلى ، ص ٣٦ .

لك طرفا منهـا فقد رأيـت بعضهم فى أحـلامى يقبض الناس ويبـسطهم كأنه المتصرف فيهم ، وبعضهم كان يأكل الزجاج فاحتفظ بباقى الكوب لأتبرك به ، وبعضهم كان يخبـرنى بكل أسرارى الماضية ويتنبأ لى بأمور مستقبلـية فتقع كما ذكرها ، وبعـضهم كان يضع يده على رأسى فـأصير فى نشاط وانشـراح وقوة خارقـة بضعـة أيام ، وبعـضهم إذا رفـضت له طلباً ، ينظر لى نظرة غـضب فتصيبنى الحمى وترتفع درجة حرارتى فى الحال وألزم الفراش حتى أقضى طلبه فيزول ما بى . . وبعضهم . . وبعضهم . .

وعشت هذا الحـال عشـر سنوات بعد موت شـيخى الأول ، وفـقدى لمن يرشدنى ، وما كـان ذلك إلا لعدم صدقى فى الطريق وكـذبى وادعائى وسوء سريرتى وطلبى للدنيا بتقربى لمن حسبتهم من أهل الله ورغبتى فى الاشتهار بين الناس بأنى أعرف الأولياء ومـقاصدى الفاسدة الكثـيرة التى يضيق الوقت عن ذكرها ، حتى منَّ الله عـلي برحمته ولطفه فـساقتنى الأقدار إلي مـعرفة الولىّ الكامل والعـارف الجليل الـذى خلصنى من هذه الأوحـال والأهوال وعـرفنى بالطريق المستقيم واتباع الكتاب والسنة،وهو الإمام الرائد محمد زكى إبراهيم ، عرفـته تبركاً ، وليس سلوكـا فلست من أهل السلوك لضعف همـتى وانكبابى على طلب الدنيـا وأغراضى المنحرفـة ، ورغم كل هذه المساوئ أخـذ بيدى ، وأخرجنى من ظلـمات الجهل إلى نور المعـرفة ، فمـا بالك لو سلكت السلوك الحقيقى على يديه .

ولا تظن أنى خـرجت بك عن سيـاق الكتـاب ، فـغـرضى هو نجـاتك وتعريفك بحقيقة الولىّ لا قاطع طريق الحق ، الذى هو أشد عقابا وحسابا عند الله من قاطع طريق الدنيا ، وله يوم حين تقوم الساعة أشد سواداً من الفحم .

ونعود إلى موضـوعنا فنقول : ليس لنا أن نغض من قيمة الأمـير عبد القادر وأولاده ،وأولاد سيدنا التيجـانى ،فكلهم أولياء وأشراف من أهل البيت، وقد شرحت لك سـبب الخلاف بينهم فـلا ينسحب كلامى علـى كل من جعل من نفسه شيخاً ولو اشتهر وذاع صيته فى أقطار العالم ، ولا ينطبق كلامى إلا على من سار على الكتاب والسنة ، لا على صاحب الخوارق المارق من شريعة الله

وعلينا أن نتغاضى عن قول سيدنا محمـد الحبيب التيجانى عن الأمير: لن يبلغ عبد القادر مراده حتى ينبت الشعر فى كف اليد [1] .

وكذلك سب الأمير محمد فى كتـابه تحفة الزائر لأولاد الإمـام التيجانى والتدخل فى ذلك فضـول من المريد الـسالك الصادق ، أمـا من غـيره فلا شأن لنا به .

★ جهاده ضد الفرنسيين :

استمر جـهاد الأمير ١٦عاماً ضد العدو الفرنسى وقـائده (ادى ميشيل) الذى زحف وتوسع فى إقليم (وهران) ، بأسلحته ومدفعيـته وجيشه وتاريخه فى الحروب وخبرته فى فنون القتال ، والأمـير يواجهه بجنود من البدو وقوات حديثـة العهـد بالحرب: سـلاحهم الإيمان ، والتـوكل على الله ، وسلاحـهم الثـانى: الخيـول وبنادق البارود ، واذا أخـذنا بالأسبـاب الظاهرة فليس هناك مجال للمقارنة بين الجيشين،ولكن الأمير الذى دخل حصن (لا اله إلا الله) ، وهو وجنوده ، ومن دخل هذا الحصن صـار آمنا ، قهر هذا العدو وتقـهقرت أمامه الكتائب الفـرنسية فى مواقع حربية كثيرة ، وليـس هذا موضوع كتابنا ، فقد وضع الباحثـون والمؤرخون فى جهاد الأمير أكثر من كـتاب وبأكثر من لغة سوف نشير إليها فى قـائمة المراجع ، لمن يريد أن يطلع عليها، ولكن أردنا أن يأخذ المسلمون فى زماننا هذا عبرة من حياة الأمير وجهاده ويثوبوا إلى رشدهم ويعـرفون من أين يأتى الـنصر ، وإن كـان الأمر لا يحـتـاج إلى ذكر مـاضى أسلافنا المجاهـدين ، فأمامنا الآن جهاد الـبوسنة والهرسك والشيـشان ، ضد العالم الغربى بأجمعـه ، وتقاعس إخوانهم المسلمين عنهم ، ولا معين لهم إلاّ الله ، وصمودهم سنوات طويلة ضد قوات لا قبل لهم بها .

ومـا يهمنا هـو إبراز أحوال وأخـلاق الأمـير كـرجل مـسلم سلك طريق التصـوف فرغم انتصـاراته على العدو الفرنسى ، ومـعاملة الفرنسـيين لأسرى الجزائر كـما تعـامل إسرائيل الأسـرى المصريين فى عصـرنا هذا . . رغم هذا

(١) كشف الحجاب . سيدى أحمد سكيرج . ص ٤١٢ .

يتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ من شجاعته وحسن بلائه فى الحرب ومعاملته للأسرى ، كان الأمير يعاملهم معاملة الضيوف الكرام لأن الأسير مكسور الخاطر ذليل مهما كان قدره ، كان يأمر لهم بأطيب الطعام ، وأحضر لهم كاهن ليخفف عنهم قسوة الأسر ، ويصلى بهم .. أمَّا النساء فكان الأمير يشفق عليهن أشد الشفقة ،وجاءه مقاتل جزائرى بأربع نسوة أسيرات فقال له : الأسد يقتنص الحيوانات القوية ، وأعادهُنّ مكرّمات ، ولما انتشرت أخبار حُسن معاملة الأمير للأسرى بين الفرنسيين رفضوا مبدأ مبادلة الأسرى ، كى لا يتحدث الأسرى بين ذويهم عن كرم الأمير وحسن أخلاقه ونبله ، فينقلب الجنود على قوادهم ويتعاطفون مع الأمير ، وعلم الأمير بذلك فأطلق سراح أربعة وتسعين أسيراً بلا فدية ولا عوض ، وكان يأمر بإعفاء الأسرى من الخدمة يوم الأحد احتراماً للديانه المسيحية ، فانظر إلى هذه المعاملة التى كان جزاء الأمير عليها الخيانة والغدر والخسة والدسائس من الفرنسيين ، حتى أوهموا الأمير بعد استسلامه أنهم ذاهبون به إلى عكا أو إلى الإسكندرية ، فإذا به يجد نفسه فى فرنسا ، ويوضع فى السجن فى امبواز خمس سنوات .

★ حرب الخليج :

لا بد لك يا أخى أن تندهش وتستغرب من هذا العنوان ، وتتساءل ما صلة الأمير بحرب الخليلج وازمه العراق والكويت ، وما الرابط بين حرب الأمير فى القرن التاسع عشر وحرب فى التسعينات من هذا القرن .. أقول لك : إن استسلام الأمير كان نتيجة فتنة ودسائس ، وحرب الخليج كانت نتيجة فتنة لا تختلف كثيراً عما حدث للأمير والأمر واحد ،والناس هم الناس والفتن هى الفتن ، والتاريخ يدور ويتكرر بطريقة واحدة ، ولو اقتدينا بأسلافنا من أهل الله ، منذ بدء الإسلام حتى يومنا هذا ، لتجنبنا ما نحن فيه من هوان وذل ، ولقويت شوكة المسلمين ، وارتفعت راية الإسلام ، فإذا اتجه حكام المسلمين وشعوبهم إلى الله ،وللقلب وجهة واحدة فقط ، لألهمهم الله صواب الرأى ونفاذ البصيرة والحكمة فى تصريف الأمور بما فيه خير الحكام وخير الشعوب .

ألا ترى معى أن حرب الخليج كانت نتيجة لدسائس وتخطيط ماكر وخبيث ومكائد أوقعت الرئيس صدام حسين فى فخ أدى إلى الخراب والدمار والفقر لكل العرب ، واحتلال أمريكى بمنطقة الشرق الأوسط ، وكلنا نعرف ما حدث ، ولا نلوم الأيدى الخفية التى سعت فى الظلام لهذا الخراب لتحقيق اغراضها ، ولكن نلوم أنفسنا بما وقعنا فى الظلم والطغيان يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ... ﴾ والكيد ليوسف عليه السلام كان فى أبسط الأمور ، وهو أن يأخذ أخاه بنيامين فما بالك بأعظم الأمور .

لكن الله تعالى يمكر ويكيد ويعاون لمن ؟!!

كان هذا الخطاب للرسول ﷺ والصحابة ﵃ ، والخطاب قائم إلى يوم القيامة،وواقع لكل من نصر الله تعالى ورسوله ﷺ ، والله تعالى لا يكيد لمن غفل عنه ،واعتمد على غيره ،واعتز بالأذلاء من البشر ، ورانت على قلبه كثرة المعاصى ،هذا العبد يتركه الله لنفسه فى ظلمات بعضها فوق بعض ، هلاكه فى تدبيره ، وحتفه فى سياسته ، وهذا ما حدث فى حرب الخليج .

أما عباد الله العارفين الذين سلموا ناصيتهم ليد خالقهم ونصروه ، ومكنهم الله فى أرضه فأقاموا دينه وشريعته وأيقنوا أن الإمارة ابتلاء شديد وأمانة عظيمة ، يفر منها العاقل الحصيف ، ويقدم عليها من أدرك ببصيرته أن الله مولاه وناصره وراعيه ، هؤلاء يمكر الله لهم ويكيد لهم ويلهمهم صواب الرأى وينصرهم ولو كادهم أهل السموات والأرض ، وقد تسأل : ما بالنا نرى أعداء الله والمفسدين فى الأرض يعلو شأنهم وينتصرون علينا .

أقول لك : هذا مكر من الله بهم وليس لهم ، واستدراج إلهى وعلينا نحن أن نأخذ بما أمرنا الله به ، ونرضى بقدره ، واعلم أن الدنيا دار ابتلاء ، لا الغلبة فيها غلبة ، ولا المغلوبية فيها مغلوبية .

كان الأمير يتسم بالأناة والصبر وضبط النفس، وفوق هذا يفتقر الى ربه

فى كل نفس ، ينصت للإلهام الإلهى فى قلبـه ، لا يعتمد على نفـسه وعقله وقدرته ، يستمد العون من صاحب الـعون ، ماتت شهوات نفسه ، نظره إلى ربه وإلى شعـبه ، همه إنقاذ رعـيته ولو ضـحى بنفسه لينجـو من عذاب النار الذى ينتظر كل طاغية جبار .

أصاب الفرنسيين اليأس ، من اندحار قواتهم الغاشمة أمام جيش الأمير ، فلجأوا للدسـائس والمكائد والشائعـات ، وهذه حيلة كل ضعـيف ، ومريض النفس ، الجبان ، خبيث الطوّية .

كان الأمـير على صلة طيـبة بسلطان المغرب « عـبد الرحـمن » والرسائل والمشاورات متصلة بينهما .

كتب إليه الأمير قائلا :

إن نفسى تميل إلى الخلوة والعبادة وتنفر من ثقل ما تحملته من أعباء الإمارة في زمان كثر فيه العدو وفسدت فيه الأخلاق .

فرد عليه السلطان عبد الرحمن :

« كيف يسوغ لك التقصى وقد رُفعت بك فى ذلك القطر راية الإسلام ، وانتظم أمر الخاص والعام ، ولن تعدم من الله عوناً ومدداً ومن صالحى المؤمنين عدة وعدداً » (١).

فـانظر يا أخى إلى تلك المودة، وهذا الحب بين أخـوين فى الله من حكام المسلمين ، كـيف تحطمت على أيـدى شيـاطين الإنس ، لقـد جند الشـيطان أعـوانه ، وغرس الفـرقة بين الأمـير والسـلطان ، وسعى أعـوان إبليس من الفـرنسيين فى الخطط الماكـرة ، والدسـائس الخبـيثـة ، والشائعـات الكاذبة ، وصدقهـا ضعاف النفوس من أهل الجـزائر والمغرب فقد أشاع العـدو أن الأمير يطمع فى حكم الجـزائر والمغـرب ، ويجند قـواته لمحـاربة سلطان المغـرب ، وللأسف الشـديد انطلت هذه الشـائعات على السلـطان نفسـه ، وعلى بعض

(١) التصوف والأمير عبد القادر ـ جواد المرابط ص ٨٦ .

قبائل الجزائر التى كانت تقاتل مع الأمير فتخلت عنه ، وبدأت بوادر القتال تلوح بين الدولتين ، ووقعت بينهما بعض المعارك ، وهكذا لا تجد فرقاً بين ما كان سيحدث ، وبين ما حدث وتحقق فى حرب الخليج ، فهدف الاستعمار واحد ، وهو تقاتل الشعوب العربية وإضعافها وضربها ببعض واحتلالها .

★ استسلام الأمير :

ألهم الله تعالى الأمير صواب الرأى ، فضرب كل هذه الدسائس بضربة واحدة ، وهى تخليه عن الإمارة ، وإعلانه أن على الجزائر والمغرب حكاماً وشعوباً ،عليهم أن يواجهوا العدو الفرنسى تحت قيادة سلطان المغرب أو غيره، لكن شعب المغرب والجزائر وحاشية سلطان المغرب كانوا فى واد ، وما نادى به الأمير فى واد آخر ؛ فلم يتحقق ما أراده الأمير ، وإن تحقق بعضه ويكفى أن تخليه عن الإمارة حقن دماء الشعبين ،فانظر يا أخى إلى رأفة الأمير ورحمة أهل الله برعاياهم ، وانظر إلى ما نحن فيه الآن .

جلس الأمير حزينا فى الصحراء ، يتأمل الأحداث ، راضياً بقضاء الله وقدره ، فأقبلت عليه والدته التى لم تكن تفارقه أينما حل ، وقالت له بحنان الأم وشفقتها : يا بنى لا تحزن واذكر قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

ثم أردفت كلامها بذكر بيت شعر من قصيدة للشاعر العربى زفر ابن الحارث بعد هزيمته فى وقعة مرج رابط .

أيذهب يوم واحد إن أسأته بصالح أيامى وحسن بلائيا ؟

مع أن الأمير لم يهزم ، ولم تصدر منه إساءة ، لكنه قرر الاستسلام للأسباب التى ذكرناها فوقّع معاهدة صلح مع العدو الفرنسى ، وطلب فى بنود المعاهدة ، أن يرحل إلى الإسكندرية أو عكا ،هو وأهله وبعض رفاقه فى الجهاد ووافق العدو على ذلك ، ولكن البارجة الفرنسية حملته إلى فرنسا .

★ الأمير فى امبواز :

بعد توقيع المعاهدة ، تخوف الفرنسيون من سفر الأمير إلى أى بلد عربى وقام الشاعر الفرنسى « ألفونس ده لامارتين » وكان نائباً في البرلمان الفرنسى ، يعلن باسم رفاقه : أن وجود الأمير فى عكا والإسكندرية أشد خطراً على مصالح فرنسا من بقائه فى الجزائر .

أى خطر هذا الذى يلفقه هذا الشاعر ، المعروف لدى المثقفين العرب أهل التنوير وأدب التنوير ، بشعره العذب وبلاغته وأخلاقه ، واسمه الرنان بين تلاميذ المدارس وطلاب وأستاذة الجامعات .

لقد صدق المفكر الإسلامى الكبير الدكتور رشدى فكار الذى يدعو إلى منهج فى التعليم يدور حول عدم ذكر أسماء المفكرين والزعماء من أهل الغرب لتلاميذ الابتدائى ، بل نجعل قدوة التلميذ أسلافه من المسلمين ، فبدل أن نعرّفه نابليون بونابرت نعرفه بخالد بن الوليد وعقبة بن نافع وطارق بن زياد، وبدلا من أن نشرح له شعر لامارتين وشكسبير نجعله يحفظ شعر حسان بن ثابت وغيره من شعراء الإسلام حتى إذا اشتد عوده ونضج فكره نفتح له الباب على ثقافة الغرب فيحكم بنفسه و يميز الخبيث من الطيب : بما عرفه من الحق ونشأ عليه من الأخلاق الإسلامية .

ونحن لا نهضم حق المفكرين الغربيين فإن منهم من هو جدير بالتقدير والاحترام ،ويظهر لنا هذا من تتبع سيرة الأمير عبد القادر فبعد سجنه فى امبواز بفرنسا خمس سنوات ، تولى لويس نابليون حكم جمهورية فرنسا عام ١٨٤٨ فتوجه إلى امبواز ، ورحب بالأمير ترحيبا حاراً وقال : اننى لا أعتبرك أسير حرب ، بل ضيف عزيز ، وكنت أتمني إنقاذك من أيدى مَن لم يفوا بوعدهم لك ، ولكن لم يتسن لى ذلك أما الآن وقد أصبحت رئيساً ، فالوقت الذى يجب أن أحقق فيه رغبتى قد حان .

ودعا الأمير إلى باريس واستقبله فى قصره ، وأطلق سراحه هو ومن معه .

★ **في امبواز كانت المقادير الإلهية :**

تربى الأمير بالشدة والعناء والصد والجفاء ، فقد دخل الأمير الخلوة يبتغى الوصال وفتح الأبواب ، وصفاء النفس لكن الوقت لم يحن بعد .

يقول الأمير (١) :

« دخلت مرة الخلوة ، فعندما دخلتها انكسرت نفسي وضاقت عليّ الأرجاء ، وفقدت قلبي ، وإذا المعرفة نكرة ، والأنس وحشة ، والمطايبة مشاغبة ، والمسامرة مناكرة . فكان نهارى ليلاً ، وليلي ويحا وويلا ، وتمكن الشيطان بالتمريج والتخليط ، وأى قربة أردتها أبعدت بها ، فلم يبق معى من أنواع الصلات إلا الصلاة ، وفى أثناء هذا الابتلاء رأيت الرسول ﷺ فى المنام ، دخلت عليه بيتاً ، وكان ﷺ جالساً مع جماعة ، فلما رآنى أخذ بطرفى مسبحة كانت فى يده الشريفة ورفعها إلىّ وقال : والدعاء .

ففهمت من إشارته ﷺ بقوله : والدعاء أن الخطب جسيم والأمر عظيم لما ورد « إن الدعاء يدفع البلاء » ؛ فكان بعد ذلك شغلى الدعاء والتضرع وكشف الرأس ، وكانت ترد علىّ الواردات فى الوقائع تشير بالصبر » أ.هـ .

ثم جاء الفرج بعد الشدة ، والعز بعد الذل ، والبسط بعد القبض ، والرجاء بعد الخوف .

وبشّر الأمير فى آخر الخلوة فى واقعة بقوله تعالى :

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ فكانت إقامة الأمير النهائية فى دمشق .

فانظر يا أخى إلى العارفين ، وخذ العبرة من سيرتهم وابتلائهم ، ولا تيأس ولا تقنط من رحمة الله ، فقد دخل الأمير الشريف النسب الخلوة يريد الوصل فإذا بالذكر وأوراد الطريقة القادرية التى كان يسير عليها لا تفتح له بابا ويجد فيها البعد والصد .

---

(١) الموقف ٢١١ ، ج ١ ورقة ١٤١ .

★ الأمير فى دمشق :

قبل استقرار الأمير فى دمشق انتقل من فرنسا إلى « بروسه » بتركيا واستقبله السلطان العثمانى ، وقدم له قصراً فى هذه المدينة ،وظل فيها عامين ونصف ، ثم رحل إلى دمشق ووصلها سنه ١٨٥٥ ، وكانت إقامة الأمير فى دمشق منحة إلهية لها ولمن حولها من المدن ، فكان الناس يلجأون إليه فى حل مشاكلهم ، وكان يتوسط للعفو عن المحكومين ، وكانت كلمته لا ترد عند الحكومة ، بل كان ولاة الأمر يتقربون إليه .

★ فتنة دمشق :

كانت شهرة الأمير فى الشرق والغرب نتيجة مواقفه المشرفة الكثيرة ، ومنها موقفه من فتنة دمشق ، التى وقعت بين المسلمين والنصارى ، كما يحدث الآن فى لبنان ، وكما تحاول بعض النفوس المريضة تنفيذه فى مصر .

يقول الأمير فى هذه المسألة :

إن الأديان وفى مقدمتها الدين الإسلامى أجل وأقدس من أن تكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات نذالة تدوى بها أفواه الحثالة من القوم . . . أحذركم من أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا أو يكون له على نفوسكم سبيلاً (١) .

سارع الأمير ورجاله الى الأحياء النصرانية لحمايتها ، وآوى فى بيته الرهبان والراهبات والقناصل ، حتى إن بعض رجاله الجزائريين قد قتلهم الرعاع الذين سعوا فى أحداث الفتنة ، وحكمت السلطات شنقا على قرابة الستين شخصا ، ونفى ١٤٥ شخصاً إلى قبرص منهم مفتى دمشق ، والسجن المؤبد لحوالى ٨٠٠ شخص من المدنيين .

ورغم هذه الأحكام ، أرسلت بعض الدول الأوربية أساطيلها الحربية إلى شواطئ لبنان ، وأرسلت حملة عسكرية بقيادة الجنرال الفرنسى « دى بورر »

---

(١) التصوف والأمير عبد القادر ، جواد المرابط ، ص٤٦ .

ولم يكن هناك أي مبرر لهذه الحملة بعد القضاء على الفتنة . وأرسل « دى بوفور » إلى الأمير يطلب منه الخروج من دمشق هو وأهله لأنه سيضربها بالقنابل . فطلب منه الأمير عقد اجتماع سرى وأوضح له الأمر ، واقنعه بالعدول عن هجومه ، وقال له فى نهاية الاجتماع : لم تكن حمايتنا لإخواننا النصارى إلا عملا بالشريعة الإسلامية ، ٠العدوان الذى حدث كان من رعاع جهلة ، قال الرسول محمد ﷺ : « ألا من ظلم معاهدا أو ذميا أو أحداً من أهل الكتاب أو كلفه فوق طاقته أو أنقصه شيئاً من حقه أو أخذ منه بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة » .

★ الأمير شيخا مربيا عابدا:

فى دمشق طابت الحياة للأمير ، ففيها أقام مجالس العلم وألف الكتب وأقام حضرات الذكر ، ولم يشغل الناس فى مجالسه بالحديث عن جهاده ضد الفرنسيين ؛ بل كان يشرح ذلك لمن يفيده الحديث عن الحرب للحكام ورجال الجيش فى مجالس خاصة بهم .

وكانت مجالس العلم هذه ، نواة لكتاب المواقف . وهو أشهر كتب الأمير « فقد رجاه الشيخ عبد الرازق البيطار والشيخ محمد الخانى والشيخ الطنطاوى أن يدونوا ما يتكلم به فى مجالسه ، فكان ذلك نواة الكتاب الذى عُرف فيما بعد باسم المواقف » [1].

ورغم مشاغل الأمير ، ومسئولياته التى كانت تقترب مما يقوم به رئيس دولة ، وعالم الدين إلا أنه كان يدخل الخلوة أربعين يوماً على قطرات الماء ولوزة وتمرة كل يوم وأحيانا كسرة من الخبز وملعقة زيت .

كان يتقلل من الدنيا ويأخذ منها قدر الضرورة ويقول : « ألست فى مقام الحارث المحاسبى الذى كان إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على أصبعه عرق فيمتنع فى الوقت نفسه » ، وكان الأمير يطعم ضيوفه أشهى الأطعمة .

---

(١) التصوف والأمير عبد القادر جواد المرابط ص ٢٣ .

★ الكتب التى أثرت فى الأمير :

حال الشيخ عـادة يسرى فى قلب مريده الصادق ، فإن كان الشـيخ مؤلها مجذوبا سرى ذلك الحال الى المريد ، وإن كان صـاحب جهاد ورياضة شاقة ، كان مريده كذلك ، وإن كان صاحب تآليف ومـصنفات ، ورث تلميذه موهبة وضع الكتب والمصنفـات ، وهذه القاعدة لهـا استـثناءات ، ولكنها غـالبة فى العادة .

وكما تأثر الإمام أبو الحسن الشاذلى ببـعض الكتب ، وكان يفضل قراءتها فى مجالســه مثل : الرسالة القشيرية ، وإحـياء علوم الدين، وقوت القلوب ، وختم الأوليـاء ، والحقـائق للسلمى ، تأثر الأميـر بكتاب (الاتقـان فى علوم القرآن) للـسيوطى ، و(الإبريز) ، وهو كـتاب عن حـياة ومعـارف القطب الغوث عبد العزيز الدباغ ، وضعه تلميـذه أحمد ابن مبارك . .كما تأثر بكتاب (الشفـا) للقاضى عيـاض ، وقبل كل تلك الكتب صـحيح مسلم وصـحيح البخارى ، والفتوحات المكية لابن عربى .

كان الأمير يقوم بشرح هذه الكتب فى مجالسه لمريديه وأصحابه .

★ تصانيف الأمير :

١ ـ كتاب المواقف :

هو أهم كتاب ألَّفه الأمير ، ويقع فـى ثلاثة أجزاء ، ضمَّنه ٣٦٦ موقفاً ، والموقف ٣٦٧ والأخيـر ، بدأه الأمير ثم انتـقل إلى ربه تعالى ، فأكـمله أحد أصحابه وهو الشيخ محمد الخانى ، والكتـاب يشمل تفسير لبعض آيات القرآن الكريم ، وشـرح للأحاديث الشـريفـة ، وتوضيح لما أبهم من كـلام أهل الله وإشاراتهم . . والـكتاب يختلف تمامـاً عن مواقف النفَـرى ، وإن كان اسـمه يوحى بالتشـابه مع مواقف النفَّرى ، وهو أقـرب إلى كتاب الفتـوحـات المكـية لابن عربى ، إلا أنه يفـتقر إلى التـرتيب والتنظيم والتبويب ؛ فـالمعنى الواحد تجده فى أكثر من موقف ، وقد طبع ثلاث مرات كما أشرنا إلى ذلك سلفاً .

٢ ـ كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:

أُختير الأمير عضواً مراسلاً لمجمع الخالدين فى باريس ، وكتاب (ذكرى العاقل) عبارة عن رسالة إلى هذا المجمع العلمى الفرنسى مُرتَّبة على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة ، والكتاب يحث على النظر والتأمل وذم التقليد وفضل العلم والعلماء ، والنبوَّة والعلوم الشرعية، وفضل التأليف والكتابة واحتياج الناس إلى تصنيف الكتب .

٣ ـ ديوان من الشعر :

لديوان الأمير أكثر من عنوان منها (نزهة الخاطر فى قريض الأمير عبد القادر) من جمْع ابنه الأمير محمد صاحب (التحفة) ، و (ديوان الأمير عبد القادر) تحقيق ممدوح حقى ، ويشمل الديوان على قصائد فى الغزل والفخر والشجاعة والتصوف ومراسلات شعرية طريفة بين الأمير وأصحابه .

٤ ـ كتاب المقراض الحاد لقطع لسان الطاغى فى دين الإسلام من أهل الباطل والالحاد :

ألَّفه الأمير فى امبواز بفرنسا ، وبيَّن فيه شريعة الرسول محمد ﷺ ، وما بها من مكارم الأخلاق ومناهج الشرع لإصلاح أمور الدنيا والآخرة للمسلمين وغير المسلمين ، وأوضح أن الإسلام جامع لكل ما تَفرَّق فى الشرائع الإلهية السابقة ؛ فالرسول ﷺ بُعث رحمة للعالمين .

كتب نُسبت خطأ للأمير :

(أ) وشاح الكتائب وزينة الجيش الغالب :

هذا الكتاب لـ (قدرور بن رويله) ، وهو من أصحاب الأمير ورفيقه فى الجهاد ، وقد حقق هذا الكتاب د . محمد بن عبد الكريم ، ونُشر فى الجزائر عام ١٩٦٨ .

(ب) عقد الأجياد فى الصافنات الجياد :

هذا الكتاب للأمير محمد بن الأمير عبد القادر ، ذكر فيه محاسن الخيل

وصفاتها ، وبالكتاب بعض أخبار وخطب الأمير عبد القادر .

(جـ) المخطوط الكبير :

هذا المخطوط هو للحاج مصطفى بن التهامي ، ابن عمّة الأمير ، وقد أملى الأمير بعض فقرات الكتاب ، وقد حققه د . يحيى أبو عزيز عام ١٩٩٥ كما أشرنا إلى ذلك في ثنايا كتابنا .

★ أولاد الأمير :

اعلم يا أخي أنّك إذا كنت قائما في دنياك بربك ، فلا خوف عليك من مشاغل الدنيا ، ولو ملكت هذا العالم وقمت بتدبيره . . وإذا قمت بنفسك شغلتك عن الله ، ولو عشت وحيداً منفرداً ، لا ترى أحدا ولا يراك أحد ، والزواج والأولاد من أكبر المشاغل التي يشكوا منها أهل الطريق القائمين بأنفسهم ، ولكن القائمين بربهم ، يعيشون الحياة الطبيعية فيتزوجون ويخالطون الناس ويمشون في الأسواق وهم في أعلى درجات الولاية ، ومع هذا لا يعرفهم إلا من كان مثلهم ، وها هو الأمير له أكثر من زوجة ، وخلف رحمه الله عشرة من البنين وستا من البنات .

وأولاده :

أكبرهم محمد مؤلف (تحفة الزائر) في مناقب وحياة والده ، ومحيي الدين ، والهاشمي ، وإبراهيم، وأحمد ، وعبد الله ، وعلي ، وعمر وعبد المالك ، وعبد الرزاق .

ولم أعثر في كل المؤلفات التي اطلعت عليها على أسماء بناته ، لقد عاش الأمير الحياة الدنيا طولا وعرضاً ، حلوها ومرها ومشاغلها الكثيرة ، ولم يمنعه كل ذلك من الوصول إلى أعلى مراتب الولاية . . وسوف تعرف ذلك من الأبواب التالية ، التي نشرح فيها معارف الأمير ، ومنازله ومنازلاته ومقاماته ، ووقائعه ومبشراته ، وفنائه في الحضرة المحمدية والحضرة الإلهية،

وبقائه بعد هذا الفناء .. ويعتبره بعض أهل الله المحققين من أقطاب الظاهر والباطن ، وإن كان ذلك لم يذكر فى أى كتاب وضع عن الأمير ، ولكن سمعت ذلك مشافهة من أحد الأولياء .

★ وفاة الأمير :

توفى الأمير عام ١٨٨٣ م فى ضحجة (دمر) قرب دمشق ونقل إلى بيته فى دمشق ، وصلى عليه أصحابه وجمع كثير من أهل الشام فى جامع بنى أميّه ، ودفن فى الصالحية فى ضريح الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى، وسار فى جنازته قناصل الدول جميعاً ، ويُذكر أن الذين ساروا فى جنازته كانوا ثلاثين ألف شخص ، وتلقى ابنه محمد برقيات عزاء من جميع رؤساء وملوك دول العالم ، وذكرت بعض الكتب « **أن المجاهدين الجزائريين لم ينسوا الأمير وحملوا رفاته لتستقر إلى جانب رفات الشهداء الأبرار فى الجزائر** » (١) .



(١) الأمير عبد القادر . بسام العسيلى ص ٩ .

الباب الثالث
وقائع الأمير ومبشراته

★ الواقعة :

هى : حالة يكون فيها السالك بين النوم واليقظة وتأتى بغتة ، لا ينالُها إلا أهل الفتح ، ويرى فيها الولى أرواح الرسل والأنبياء والملائكة والأولياء ، ويبشر بأمور أو ينذر أو يتلقى أمراً أو نهيا ، أو يتلقى علوما لدنية أو يجاب على سؤال خطر على قلبه ، وغير ذلك مما يعرفه أهل الله ، وكل ما يراه العارف فى الواقعة لا يخالف الشريعة ، وصاحب الواقعة يكون على بصيرة وبيِّنة فيما يرى ، ويستحيل على صاحب هذا المقام أن تتلاعب به الشياطين والجن . . وإن حدث ـ ويكون هذا نادراً جداً ـ كَشَفَهم الولى وعرفهم وطردهم بقوته الروحية ، ووقائع الأمير كثيرة مثل شيخه الروحى محى الدين بن عربى وسوف نذكر وقائع الأمير التى تفيد السالكين ، وتشير إلى مقام الأمير ، ونشرح ما يتعلق بالواقعة على قدر فهمنا ومعرفتنا القاصرة ، وسيكون هذا منهجنا فى تناولنا لتفسيره الإشارى للقرآن ، وشرحه الإشارى أيضاً للأحاديث النبوية الشريفة ، والله تعالى يغفر لنا تطفلنا على أهل الله ، مع قصور باعنا وضعف حالنا .

★ المبشرة :

هى :رؤيا منامية يتنزل بها ملك المبشرات على قلب عباد الله الصالحين ، وهى كثيرة عند العارفين ، وقد تحتاج إلى تأويل وقد لا تحتاج ، وأهل الله لا يقيمون اعتباراً كبيرًا للمنامات التى يعرض فيها أحداث كونية ، وليس للمرائى فيها فائدة فلا هى تبشير ولا هى إنذار ، وكل رؤيا لا تفيد علما أو صلاحا أو فائدة دنيوية أو أخروية ، لا يعول على هذه الرؤيا .

ومقصود العارفين معرفة الله ، وتحقيق مقام العبودية المحضة وكل ما يمنع ذلك عنهم فلا قيمة له عندهم .

ويلقى إلى العارف فى مبشراته كثيراً من العلوم والإرشادات بل قصائد كاملة من الشعر ، ومن عجائب هذا الأمر أن يلقى للعارف قولاً أو علماً لا يفهمه ، ويكون من نصيب عارف آخر ، وقد صرح بذلك الشيخ الأكبر فى فتوحاته المكية .

★ الخيال وعالم المثال (المتصل والمنفصل) :

عالم الخيال أو المثال أو البرزخ كلها بمعنى واحد ، وهذا العالم أمره خطير وشأنه كبير عند أهل الله ، والناس فى غفلة عن هذ الأمر ، ففى هذا العالم تتنزل المعارف والعلوم على قلوب الأولياء ، ويلتقى بعضهم ببعض ، ويخاطبون من قبل الحق تعالى ، وهو غير الخيال الذى يتصوره عامة الناس من حديث نفس وتصور للماضى ؛ فهذا تخيل وهمى لا فائدة فيه ، وإن كان من عالم الخيال الحقيقى ، وما من شئ فى الوجود إلا وله وجه إلى الحق ، والضلال طرأ على العقول من عدم الفهم للحقائق ، ومن لم يعرف مرتبة الخيال فهو محروم تماماً من المعرفة الإلهية .

وعالم المثال بين الدنيا والآخرة ، يدخله العارف فى النوم واليقظة، وبين النوم واليقظة ، وحضرة الخيال تشبه الآخرة إلى حد كبير ، ومن دخلها من العارفين عرف حقيقة الجنة والنار والحشر والحساب ، لكنه لا يستطيع شرح ذلك وتوصيله للآخرين لأنها حضرة ذوق ومشاهدة ، فما كل ما يراه العارف فيها يقال .

والخيال المتصل : هو قوة الخيال المخلوقة فى الإنسان ، والتى يدخل بها حضرة الخيال المنفصل .

والخيال المنفصل : هو حضرة الخيال الجامعة الشاملة ، التى هى البرزخ وعالم المثال وفهم هذا الكلام يحتاج إلى تذوقه وشهوده .

★ واقعة :

يقول الأمير : كنت بين النائم واليقظان فقيل لى : إن الناس يظنون أنهم فى حالة النوم فى خيال وعدم ، وفى حالة اليقظة فى وجود وحق ، وما

يدريهم أنهم في الحالتين فى خيـال لا حقيقة ، فإنهم فى حـالة النوم فى خيال متصل ، وفى حالة اليقظة فى خيال منفصل ، وحقـيقة الخيال فيهما واحدة ، إذ الخيال المتصل شـعبة من الخيال المنفصل ، والخيال لا مـوجود ولا معدوم ، ولا منفى ولا مـثـبت ، وليس فى الوجـود الحق الثـابت إلا الله عـز وجل ، والأرواح والأجسام خيال كلها [1] .

★ الخلق الجديد :

الله تعالى هو الخـلاق على الدوام ، فالعالـم يتغيـر فى كل نَفَس، يقول تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ، واليوم يقـصد به أقل الزمـان ، وهو جزء أصغر من الثـانية ، ولا يدرك هذا الأمر إلا بالكشف والإدراك الروحى ، ومن كان محبـوساً فى عالم المادة المقيد المحـدود الضيق لا يدرك هذا الأمر ، والمثل الذي ضـربه الله لنا ، والذى هو فينا جـميـعاً ولا نتـأمله ، والذى يدل على الخلق المتغير فى كل نفس ، هو خواطر القلب ، فانظر إلى الخواطر التى تسرى فى قلبك فى اليـوم والليلة تجد أنهـا لا تنحصـر فى العدد ، وإحـساس الناس بالملل والسأم والاختناق فى عالم المادة ، نشأ من عدم إدراكهم لهذه الحقيـقة ، وعالم المادة من طـبيعـته ، المحدودية ، مـهمـا كان اتساعـه ، ولذلك يحب الإنسان التغيـير ، والانتقال ، فإذا تم له ذلك أحس بالحاجة إلى تغـيير آخر ، وراحته وسعادته فى التغيير زائلة ووقتية .

★ واقـعة :

يقول الأمير : قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾

الخـلاق كثـير الخلق ؛ فـالحق تعـالى خلاّق على الدوام . . قـيل لى فى الواقعة : إن محمد بن قائد الأوانى . كان لا يقول بالخلق الجديد ، وكتب فى ذلك رسالة سماها « الرشحة فى بقاء النسخة » هكذا قيل لى .

ومعنى هذا أن ابن قائد سمع من الناس من يقول بالخلق الجديد فى كل ما يقـال فـيه صـورة ممكنة ، وليـس الأمر كـذلك ، وإنما الخلق الجـديد خـاص

(١) الموقف (٢٩) من كتاب المواقف ج ١ / ٢٣ .

بالصورة المحسوسة ، أما الصور الروحانية فهى باقية أبدية لا يلحقها زوال فليس فيها خلق جديد ، فلا خلاف بين ابن قائد وغيره من العارفين [(١)].

★ العبودية المحضة :

هذا المقام هو مطلب العارفين . . وهو أعلى المقامات وفيه الرحمة الكاملة وهو أن تعبد الله لله بالله لا بنفسك ولا تطلب جزاءً ولا عوضاً ولا كشفاً ولا مقاماً ولا حالاً ، والطلب الوحيد الذى لا يناقض هذا المقام هو طلب العلم بالله ، قال تعالى : ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ تطلب ذلك على سبيل العبودية والذل لله .

قيل لأحد العارفين على لسان حضرة الحق تعالى : كل العارفين يطلبون ما عندى وأبو يزيد يطلبنى . . إشارة إلى هذا المقام .

★ واقعة :

يقول الأمير : خطر لى فى بعض الأيام لو أن الله تعالى كشف لى عن عالم الخيال المطلق ودام علىّ هذا الخاطر يومين ، وحصل لى قبض ، فكنت أذكر الله فأخذنى الحق عن نفسى ثم ألقى إلّى قوله ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ ؛ ففهمت أن الحق أشفق علىّ مما حصل لى ، وفى حالة القبض دعوت الله فى بعض الصلوات وقلت : **اللهم حققنى بحقائق أهل القرب ، واسلك بى مسالك أهل الجذب** ، فسمعت فى سرى : قد فعلت . . فتنبهت من غفلتى ، وعرفت أن الحكمة اقتضت عدم حصول ذلك ، وأنى غالط فى هذا وأن مثلى مثل من دعاه الملك إلى حضرته والجلوس للمحادثة والمباسطة ، وهو مع ذلك يتمنى أن لو خرج لمشاهدة دواب الملك وخدامه والتفرج فى الأسواق فرجعت إلى الله ، وسألته أن يحققنى بما خلقنى لأجله من معرفته وعبوديته .

وكان مثل هذا الخاطر خطر لى وأنا بطيبة المباركة ، وتوجهت للذكر فأخذنى الحق عن نفسى ثم ألقى إلىّ قوله : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي**

---

(١) الموقف (١٧٦) ج ١ / ١١٥ .

﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .. ﴾ ؛ فلما رجعت إلى حسى قلت : حسبى حسبى ، وغاب عنى هذا وما تذكرته إلاَّ بعد [١].

★ **القبض والبسط :**

القبض والبسط حالان يتعاقبان على المريد السالك ، وهما من آثار اسمه تعالى القابض واسمه تعالى الباسط ، والمريد يحب البسط ويفرح به ، لأنه يجعله فى حالة نشاط وبهجة وقوة ، يقوم الليل ويصوم النهار ويزهو بعبادته ، وفى ذلك البعد من الله بعينه ، فالعابد يتدلل بعبادته ويطلب القرب من الله جزاءً على ذلك ؛ فإذا أبعده الله وقبضه وتجلى عليه بأسماء الجلال ، اغتم وأصابه الهم ، وظن أنه مطرود ومبعد ، وهذا الفهم بعيد جداً عن الحقيقة فأسيادنا العارفين يرون فى القبض السلامة ، وفى البسط العطب .

ويقول الشيخ عبد الحافظ على الخلوتى الدرديرى :

إذا عرض على المريد البسط ، فيجب عليه التحفظ من قلة الأدب ورفع الرأس والضحك والزهو ، ويصرف هذه الحالة فى الخلوة ويطلب من ربه زوالها والحفظ منها ، وحالة القبض حالة السلامة ، ولا خوف على المريد معها لكنها حالة صعبة لا تلائم النفوس الجاهلة ، والعارف يخاف من البسط ويلتذ بالقبض كما يلتذ أهل الدنيا بدنياهم ، وذلك لعلمه أن فى البسط هلاك باطنه وعمارة ظاهره ، ومن قال أن فى البسط حضور ومشاهدة ، وليس فى القبض ذلك ، فاعلم أنه ليس أهلا لما ادعاه ولا عرف الحضور ، لأن الحضور مع الله هو الغيبة عن جميع ما سواه ولا يحدث ذلك إلا فى القبض [٢].

★ **واقعة :**

يقول الأمير :

حصل لى أيام التوجه قبض واستبعاد للطريق لجهلى بنفسى واعتقادى البعد من ربى فأفنانى الحق عن نفسى وألقى علىّ قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ .

---

(١) الموقف (١٨) / ١٨ ج ١ .

(٢) هداية الراغبين ، الشيخ عبد الحافظ بن على ، ص ٧٧ .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ .

أخبرني تعالى في الآيتين الأوليين أن الملائكة مع كثرتهم التى لا يحصيها إلاّ خالقهم يسبحونه ويذكرونه فلا تتوهم أنك تذكره وحدك فتتدلل بعبادتك وذكرك فتريد أن يفعل بك ما تريد لا ما يريد فاعرف قدرك وتأدب ، فالعبد يفعل ما يليق بالعبودية ، والرب يفعل ما يلقى بالربوبية .

وأخبرنى فى الآية الثالثة ، أن أسماء الله كلها حسنى ، ومن جملتها الاسم القابض ، فهو تعالى يتعرف إلى عباده فى أسمائه كلها ، فمن عرف الحق فى بعض تجلياته دون البعض ، فما عرفه فى مرتبة الاطلاق ، وإنما عرفه مقيداً ، تعالى الله عن التقييد ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ اتركوا وباعدوا الذين يميلون إلى بعض أسمائه دون بعض .

وأخبرنى تعالى فى الآية الرابعة ، أن القبض والبسط بمثابة الليل والنهار ، فالقبض شبيه بالليل ؛ فلهذا من الانكماش والانقباض ، وسكون النفس بالقهر الذى نزل عليها ، وتحققها بعجزها عن دفع ما نزل بها ، فلا حظ للنفس فى القبض أصلا ؛ فلهذا كان الإنسان فى وقت القبض أقرب إلى السلامة وتوفية الربوبية حقها والأدب معها من وقت البسط ، وأما البسط فهو شبيه بالنهار لما فيه من نشاط النفس واسترسالها فى الأمانى والدعاوى الباطلة ولهذا كان وقت البسط أقرب إلى العطب ، قال بعض السادة : لا يقوم بحق الأدب فى البسط إلا القليل [1].

---

(١) الموقف (١٦٩) / ج ١ / ١١١ .

★ التوكل :

مفهوم التوكل،هو الأخذ بالأسباب ظاهراً والاعتماد على الله باطناً ، فمن اعتمد على الأسباب فقط عطل القدرة ، ومن ترك الأسباب فقد عطل الحكمة فلا بد من الأخذ بالأمرين .

وبعض المريدين إذا قرأ كلام العارفين بأن الله فاعل عند السبب ترك السبب ، وبالتالى ترك المجاهدة والرياضة والعبادات ، وكل هذا لابد منه ، ولا وصول إلى الله إلا بالمجاهدة ، لكنها ليست سبباً فى الوصول فإنه وهب إلهىّ ، ويحتج البعض بأحوال الخاصة من أهل الله ، مثل إبراهيم بن أدهم الذى كان أميراً ، وكان يشتغل باللهو والصيد فنودى فى سره وهو فى حالة الغفلة هذه : يا إبراهيم ما لهذا خلقت .. فترك الإمارة وسلك الطريق ، يقول المريد: هل جاهد ابن أدهم حتى ينادى من قبل الحق تعالى ؟، نقول : هذه حالة جذب حدثت بغتة ، لكن هل تتبعنا سيرة ابن أدهم بعد ذلك، وما لقيه من تعب ومشقة ، وما قام به من جهاد ، وما ابتلاه الله به من فقر وذل .

والخلاصة أن التعلق بالأسباب دون تعلق القلب بالله حجاب كبير ، لكن يجب الأخذ بها .

★ واقعة :

يقول الأمير :

قيل لى فى الواقعة : الناس غالطون فى أحكامهم فى الأسباب كما غلطوا فى التعلق بالأسباب على أنها تؤثر بصورها المحسوسة ويقولون : هذا سبب قوى ، وهذا سبب ضعيف ، ويتخيلون أن المسببات ما وجدت إلا بها من حيث صورها ، وهذا الذى أضل الخلق عن طريق الهدى والعلم ، وحجبهم عن الوجه الخاص الذى له تعالى فى كل كائن ؛ فالأسباب والعادات حجبه هو الفاعل بها ما يشاء .. والسبب ما هو سبب لذاته ، وإنما يكون سبباً بجعل الحق تعالى وخلق السببية فيه ، والمشاهدة قاضية بهذا ، فإنّا نرى شخصين متفقين فى كل شئ ، يمرضان بمرض واحد ويسقيهما الطبيب دواء واحداً

فيصح زيد ويموت عمرو ، فهل هذا إلا أن الله تعالى جعل السببية فى هذا الدواء لزيد ولم يجعل فيه السببية لعمر؟!! .

فاثبت الأسباب - يا أخى - حيث أثبتها الحق تعالى امتثالاً للأمر واتباعاً للحكمة ، ولا تعتمد عليها من حيث هى أغيار للحق تعالى ، وشاهد وجه الحق فيها ، فلابد من الأسباب وجوداً . والغيبة عنها شهوداً ، فإذا سمعت أو رأيت من يقول بالأسباب من الكاملين فذلك من جهة وجود عينها ، أو يقول برفعها فذلك من جهة تأثيرها من حيث صورها [1] .

★ الفناء فى الحقيقة المحمدية :

الحقيقة المحمدية ، ترد فى كتب العارفين بأسماء كثيرة مثل :

العقل الأول ، والحق المخلوق به الخلق ، والتعين الأول ، والإنسان الأكمل ، والروح ، والعنصر الأعظم ، لكن لم يشرح أحد من العارفين كنهها لأن الإحاطة الكاملة بمعرفتها مستحيلة .. قيل لأبى يزيد لما أراد ذلك : لو اقتربت لاحترقت كما تحترق الشعرة .

وقال الشيخ الأكبر فى كتاب « عقله المستوفى » : هو أكمل موجود فى العالم ، ولولا عهد الستر الذى أخذ علينا لبسطنا الكلام فيه ، وبينا تعلق كل ما سوى الله به .

ويظهر لنا من كلام أهل الله ، أن الحقيقة المحمدية ، هي حقيقة الرسول محمد ﷺ ، والفناء فيها معناه : أن ينسى العارف نفسه ، ويذوب فى حب الرسول ﷺ ، وذلك بعد اتباعه فى كل شئ قلّ أو جل .

فإذا فنى العارف فى هذه الحضرة ، تحدث بلسان الرسول ﷺ وخوطب بمخاطبات الحق تعالى له ﷺ ، فما يقول العارفون من معانى ليست من مقامهم ، وتوهم السامع أنهم يفضلون أنفسهم على الرسل عليهم السلام فمن هذه الحضرة صدر كلامهم .

---

(١) الموقف (٢٥١) / ٨٢ ج ٢ .

★ واقعة ومبشرة :

يقول الأمير :

كنت مغرماً بمطالعة كتب القوم منذ الصبا ، غير سالك لطريقهم ، فكنت فى أثناء المطالعة أعثر على كلمات تصدر من سادات القوم يقف منها شعرى وتتقبض منها نفسى مع إيمانى بكلامهم على مرادهم ؛ لأننى على يقين من آدابهم الكاملة وأخلاقهم الفاضلة ، وذلك كقول عبد القادر الجيلى لسائر الأنبياء أوتيتم اللقب وأوتينا ما لم تؤتوه ، وقول أبى الغيث بن جميل : خضنا بحراً وقفت الأنبياء بساحله ، وقول الشبلى لتلميذه : أتشهد أنى محمد رسول الله ﷺ فقال التلميذ : أشهد أنك محمد رسول الله ﷺ .. ومثل هذا كثير ، وكل ما قاله المؤولون لكلامهم لم تسكن إليه النفس .. إلى أن منّ الله على بالمجاورة بطيبة المباركة ؛ فكنت يوماً فى الخلوة فأخذنى الحق عن العالم وعن نفسى ، ثم ردنى وأنا أقول :

لو كان موسى بن عمران حياً ما وسعه إلا اتباعى ، على طريق الإنشاء لا على طريق الحكاية ، فعلمت أن هذه القولة من بقايا تلك الأخذة ، وأنى كنت فانياً فى الرسول ﷺ .

وكذلك وقع لى مرة أخرى فى قوله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر» (أى أن الأمير نطق بهذا الكلام) .

فتبين لى وجه ما قاله هؤلاء السادة ، وهذا نموذج ومثال لا أنى أشبه حالى بحالهم ، حاشاهم ثم حاشاهم ثم حاشاهم ، فإن مقامهم أعلى وأجل وحالهم أتم وأكمل .

وقبل أن تصدر منى هذه المقالة ، كنت ثالث ليلة من رمضان متوجهاً للروضة الشريفة ، فحصل لى حال وبكاء ؛ فألقى الله فى قلبى أن الرسول ﷺ يقول لى : أبشر بالفتح ، فبعد ليلتين غلبنى النوم فرأيت ذاته الشريفة امتزجت بذاتى ، صارتا ذاتا واحدة ، أنظر إلى ذاتى فأرى ذاته الشريفة وذاتى فقمت فزعا مرعوبا فتوضأت ودخلت المسجد للسلام عليه ﷺ ، وعدت

إلى الخلوة وأخـذت فى الذكر فأخـذنى الله عن نفسى وعن العـالم وألقى إلى قوله تعالى : ﴿ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ .

فعلمت أن الإلقاء تصديق للرؤيا ، ثم بعد يوم أخذنى الحق وسمعت قائلا يقول لى : « انظر ما أكتنته حتى كنته » بهـذه السجعة المباركة فعلمت أى هذه القولة تصديق للرؤيا السابقة ، والحمد لله تعالى .

وقد أمـرنى الله بالأمر العـام لرسوله ﷺ بالتـحدث بالنعـم ، وأمرنى بالخصوص مراراً بإشارة هذه الآية الشريفة : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (١).

من استراح تعب

★ واقـعة :

يقول الأمـير : قيل لى فى الواقـعة : من استـراح تعب ؛ فقلت : ومن تعب استراح .

وذلك أن الحق تعالى خلق الأنسان وجعله ينتقل فى المنازل والأطوار حتى يستقـر به القرار فى جنة أو فى نـار ، وأعظم مواطن الإنسـان موطن الدنيـا وموطن الآخرة ، فـموطن الدنيا موطن تكليف وتعب وضيق وعـمل وحجاب وحجـر ، وموطن الآخرة موطن تشـريف وراحة واطلاق ومشـاهدة وجزاء ، فمن اسـتراح فى الدنيا بإعطائه نفـسه مناها واتباع مـرادها وهواها ، فلم يعط الموطن حقـه ولـم يراقب حكمة الحكيم تعالى تعب فى الآخرة ، لأنـها موطن جزاء واجتناء ثمرات ما غرس فى الدنيا من الأعمال .

ومن تعب فى الدنيا وأعطى الموطن حقه بالقيام بوظائف التكاليف والعمل بما رسم المشرع ، اسـتراح فى الآخرة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ .. وليس الخير فى الدنيا إلا ما أمر به الشارع ، ولا الشر فيها إلا ما نهى عنه (٢).

---

(١) الموقف (١٣) ج ١ / ١٥ .

(٢) الموقف (١٧٧) ج ١ / ١١٦ .

السعيد من احبهم والشقى من ابغضهم

قال الشيخ الأكبر فى الفتوحات المكية :

. . . فاحمدوا الله يا اخواننا حيث جعلكم الله ممن قرع سمعه أسرار الله المخبوة فى خلقه التى اختص الله بها من شاء من عباده ، فكونوا لها قابلين مؤمنين بها ولا تحرموا التصديق بها فتحرموا خيرها .

قال أبو يزيد البسطامى وهو أحد النواب « يقصد أقطاب الظاهر الذين هم نواب الأقطاب الحقيقيين من الرسل الأربعة » لأبى موسى الديبلى : يا أبا موسى إذا رأيت من يؤمن بكلام أهل هذه الطريقة فقل له يدعو لك فإنه مجاب الدعوة [(١)].

وقال أبو الحسن الشاذلى : من لم يتغلغل فى طريقنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر .

واعلم يا أخى أن من يهاجم هذه الطائفة حسداً وحقداً وجهلاً فهو ممقوت ومطرود ومبعد . . أما من دفع الشبهات وأخلص نيته من علماء الرسوم الذين لم يسلكوا طريق القوم وفعل ذلك انتصاراً للسنة النبوية الشريفة ، ووقع منه ذلك لعدم ذوقه ومشاهدته وكثافة حجابه فهو معذور ولا لوم عليه . .

ونستأنس فى هذا المقام بكلام سيدنا عبد الكريم البرمونى فى كتابه (تنقيح روضة الأزهار) ، وهو كتاب فى مناقب سيدى عبد السلام الأسمر الشاذلى يقول: « اعترض الشيخ سالم الحامدى وهو من علماء الشريعة على سيدى عبد السلام الأسمر ، وكان اعتراضه غيرة على الشريعة ، يقول سيدى عبد السلام الأسمر : لما أردت معارضة الشيخ الحامدى بهمتى الباطنة : رأيت فى عالم المثال السنة النبوية فى صورة شوك من الحديد كالرماح الطويلة ، تمنع قوسى من تصويبه نحو الشيخ. أ . هـ .

وذلك لأن الشيخ الحامدى يمتثل السنة ، ولم يعترض للهوى وحظ نفس وجهالة ، كما يفعل أعداء التصوف فى أيامنا هذه ، والله أعلم بنية عباده ، وغرضنا جمع شمل المسلمين على كلمة سواء لا التفريق بينهم .

---

(١) الفتوحات المكية ابن عربى . المجلد الثانى ص ٦ .

★ **مبشرة :**

يقول الأمير : رأيت فى الرؤيا رجلا تعلق بى وقال : شـممت منك رائحة ليلى ، فـقلت : ما أنا منهم ولكن من المؤمنين بوجـودهم المصدقين بكـلامهم فقـال : كيف السبيل إليـه ؟ فقلت له : إذا أرادك خلق فيك الطالبـية ، وفى مطلوبك المطلـوبية كـأنى أردت بهـذا أن الحق يخلـق فى المطلوب الذى هو الشيـخ بهمة المريـد وقوة صدقـه ما يطلبـه المريد منه، وما تذكـرت هذه الرؤيا إلاسبقـتنى دموعى، فإياك يا أخى أن يصدك صاد ، أو يعـارضك معارض عن محبـة هذه الطائفة العلية والتـصديق لكلامهم فإن مـحبتهم عنوان الـسعادة ، والإعراض عنهم عنوان الشقاء [١] .

وقائع ومبشرات اجتمع فيها الامير بالشيخ الاكبر

★ **التربية الأويسية :**

اعلم يا أخى أن اللقاء الروحى بين أهل الله فى عالم المثال حقيقة لا ينكرها إلا إنسان محـجوب جاحد جاهل بأحـوال القوم ، ومن المعروف لأهل الله أن القطب الغوث أبا يزيـد البسطامى قد تلقى تربيـته الروحيـة وسلوكه عن روح الإمام جعفر الصادق الذى مـات قبل مولد أبى يزيد بأربعين سنة ، وقبل ذلك تلقى سيدنا أويس القـرنى تربيته الروحية من روحـانية الرسول ﷺ ولم يره فى عالم الأجـساد . ولذلك يطلق على هذه التربيـة التى لا يلتقى فيـها المريد بالشيخ : التربية الأويسية .

ومريد الشيخ هو ابنه فى عالم الأرواح ، وصلته به أقوى من ولد الصلب والأبوة الطينية ، وأولاد المشايخ مقسـومون لهم فى الأزل لا يتنسبون لغيرهم ، مثل ما تراه فى عالم الظاهر ، وقد يقوم بتـربية ابن الشيخ من صلبه شيخ آخر وها هى السيدة الصـالحة مريم بنت عدون زوجة الشيخ الأكبـر ابن عربى تقول لزوجهـا : يتولانى رجل من رجال الغـيب لا أرى له شاهداً فى عـالم اليقظة يقول لى : تقصـدين الطريق ،قلت: إى والله ، ولكن لا أدرى بماذا ؟ فقـال

---

(١) الموقف ٢٣١ ج ١ / ١٥٤ .

لى : بخمسة ، وهى : التوكل واليقين والصبر والعزيمة والصدق .. فلما عرضت رؤياها على الشيخ الأكبر قال لها : هذا مذهب القوم [1] .

والشيخ الأكبر إمام الإرشاد فى عصره ، وزوجته بجواره ليل نهار ، ويتولى تربيتها غيره ، وفى عصرنا هذا كانت تربية الشيخ عبد الفتاح القاضى عن طريق روحانية الرسول ﷺ ، ولم يكن له شيخ فى الظاهر ، ذكر ذلك الشيخ عبد الجليل قاسم فى كتابه « المنار الهادى » والإمام الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه « المدرسة الشاذلية » ، وهما من مريدى الشيخ عبد الفتاح القاضى .

ورغم أن الأمير انتسب إلى الطريقة القادرية ، والطريقة النقشبندية ، والطريقة الفاسية الشاذلية ، إلا أنه كان كثير اللقاء بابن عربى فى عالم الأرواح وقام بشرح بعض فصوص الحكم وأبيات من شعر الشيخ ودافع عنه فيما نُسب إليه زورا وبهتانا .. ويقول عنه دائما : إمامنا ، شيخنا ، سيدنا ، أستاذنا ، خاتم الولاية المحمدية .. ويعترفُ أنه الجد الروحى له فيما كتبه فى بعض المواقف .

★ مبشرة :

يقول الأمير : اعلم أن الإمام عبد الكريم الجيلى انتقد فى كتابه (الإنسان الكامل) على الشيخ الأكبر ابن عربى ثلاث مسائل فى باب العلم ، وباب الإرادة والإختيار ، وباب القدرة [2] ، ولا أدرى كيف احتجب وجه هذه المسائل عنه ؟ ومن أين جاءته هذه الغفلة ؟ وسرى إليه هذا السهو ؟!!.. فأردت أنا العاجز أن أبين مقصود الشيخ الأكبر ولا أناقش كلام الإمام الجيلى وإنى أعلم أنى لا أكون قطرة من بحره ﵁ ، ولكن من عرف الحق عرف أهله .

من عرف الحق بالرجال   تاه فى مهامة الضلال

(١) الفتوحات المكية ،ابن عربى ، المجلد الأول ، ص ٢٧٨ بتصرف .
(٢) المسائل التى اعترض عليها الإمام الجيلى ، وردت فى كتاب الإنسان الكامل الجزء الأول ص ٤٦ ، ص ٤٩ ذكرنا ذلك لمن أراد الاطلاع عليها بالتفصيل .

وذكر الشيخ مصطفى البكرى ﷺ فى شرحه لورد السحر أنه كان بدمشق رجل صالح همّ بشرح عينية الإمام الجيلى والبوادر الغيبية والنوادر العينية ، فرأى الشيخ الأكبر فى المنام فنهاه عما هم به وقال له : لا تفعل فانه رمانى بثلاث حصيات ، وهى الثلاث مسائل التى ذكرتها سابقاً .

شرح الأمير هذه المسائل فى حوالى ١٩ صفحة فى كتاب المواقف يضيق كتابنا عن ذكرها ، فمن أراد الاطلاع عليها فليرجع إلى كتاب المواقف الموقف ٣٤٦ ..

وقد بدأ الأمير شرحه بقوله : يقول العبد العاجز ـ والقائل شيخنا الروحانى محيى الدين ﷺ والعبد مترجم عنه ـ مما يدل على أن الأمير يتلقى بعض معارفه من روح الشيخ الأكبر كما ذكرنا سابقا .

ونعود إلى كلام الأمير .. يقول :

وبعد كتابة بعض السطور رأيت شيخنا وسيدنا محيى الدين فى المنام فى صورة أسد ، ولا أشك أنه الشيخ ، وفى كف ذلك الأسد اليسرى سلسلة عظيمة ، فكلمنى الأسد وقال : أدخل يدك فى فمى فخفت كالعادة ؛ فقال لى : لا تخف ، فأدخلت يدى وأخرجتها سالمة ، ثم تحول من صورة أسد إلى صورة سيدنا ، وهى الصورة التى رأيته ﷺ فيها غير مرة ، إلا أنه موله مجذوب يخلط فى كلامه ، فحاشيته وأنا أتكلم معه ، ثم التفت إلىّ وقال : ها أنا أروح أموت مرتين أو ثلاث مرات ، ووقع على الأرض ، وانتبهت ، وعبرت ظهوره فى صورة الأسد بمرتبته بين الأولياء ، والسلسلة بالشريعة ، ولولا الشريعة لقال ما لم يقله أحد ، وإدخال يدى فى فمه أنه الممد لى بما أكتب ؛ فإن جميع ما حصل لنا من الخير بعد الإيمان بالله ورسوله هو بواسطته وأولت التوله والجذب باختباط الوقت ومرجه وشدة تغيره وخروجه عن الاعتدال ، وقوله : ها أنا أروح أموت لشدة أسفه وحسرته على ما صار اليه الإسلام والمسلمون من مخالفة أمر ربهم ونبيهم وإعراضهم عن دينهم ..

وشرعت فى الرد على ما كتبه الإمام الجيلى عن سيدنا ، وبعد اتمام الرد رأيت رؤيا أخذت منها بشارة برضا سيدنا بالانتصار له ، وأن ذلك وقع منه

بجانب القبول . . رأيت أنه دفع إلىّ مكتوب مختوم ففتحته فإذا فيه صورتى ، وعلى رأسها تاج السلطنة والمملكة ، ومكتوب لى بالترغيب وقبول هذا التاج، فأولت ذلك بأن شيخنا ملك ، وعادة الملوك إذا خدمهم أحد يخلعون عليه خلعة [1] .

★ مبشرة:

يقول الأمير فى شرحه للفص الإسماعيلى من كتاب (فصوص الحكم) لابن عربى ردا على طلب أحد المحبين :

فأجبته مستعينا بالله تعالى ، ومستمداً مما أفاضه علينا سيدنا وشيخنا محيى الذين ﷺ فى حياته ـ يقصد قراءة مؤلفاته ـ وبعد موته ـ يقصد لقاءاته الروحية بالشيخ ـ فإنه ﷺ بضاعتنا التى منها نمير أهلنا ، هذا مع قوله لى ﷺ فى مبشرة طويلة أنه لا أحد من شراح النصوص فهم مراده ـ يقصد مراد الرسول ﷺ [2] .

★ مبشرة :

يقول الأمير فى شرحه للفص الشعيبى من (فصوص الحكم) :

رأيت مبشرة عند شروعى فى الكتابة على هذا الفص . . رأيت انى وقفت على باب بيت فوجدته مغلقاً ، عليه قفل من حديد ولامفتاح عليه ، فحركت القفل تحريكات فانفتح ، فلما دخلت البيت وجدت مفتاحه داخله ، وأخذته.

فأولت البيت بالفص الشعيبى (نسبة إلى سيدنا شعيب عليه السلام) وكونه مغلقا يدل على أنه ما دخله أحد ممن تكلم على الفص الشعيبى ، وكونى وجدت مفتاحه فى وسطه وأخذته يدل على أنى أعطيت الإذن فى الدخول لهذا البيت الذى هو الفص الشعيبى أ . هـ [3] .

---

(١) الموقف (٣٤٦) ج ٣ / ٢٦ .
(٢) الموقف (٣٥٥) ج ٣ / ٤٦ .
(٣) الموقف (٢٤٨) ج ٢ .

وكتاب (فصوص الحكم) من أصعب الكتب التى ألفها الشيخ الأكبر ، وفهمه عسير إلا علـى من يسّر له الله ذلك ، وقد اطلعت على أكثر من شرح لهذا الكتاب ، وبعض الشروح أكثر تعقيداً واستغلاقاً من كتاب الشيخ نفسه ، ومن هذه الشروح التى بين أيدينا :

- **شرح فصوص الحكم لكمال الدين** التاشانى .
- **جواهر النصوص فى حل كلمات الفصوص لعبد الغنى النابلسى .**
- **نور أسرار المعارف من كنوز اللوح والقلم المسمى به .**
- **شرح فصوص الحكم لمولانا سيد يعقوب أفندى .**

★ واقعة :

يقول الأمير : « ما ينسب إلى سيدنا خـاتم الولاية محيى الدين من الكتب المؤلفة فى علم الـتدبير والكيـمياء زور وافـتراء ؛ فإنه مـحال أن يدل ولى من أولياء الله عـباد الله على ما يقطعـهم عن الله ، وكذلك ما ينسب لسـيدنا من الكتب المؤلفة فى الملاحم والجفر كالشجرة النعمانية وغيرها . .

وقد اجتمـعت به فى واقعة وسألته عن الجفر المنسوب إليـه فقال : كذب وزور ، وكذلك الفتاوى المنسوبة إلـىّ كذب وزور ، وما كنت سمعت أن هناك فتاوى تنسب إليه » أ . هـ .

وأريد أن أعرّف الساده القراء أن كتابى هذا ما هو إلا مدخل لمعرفة تصوف الأمير ، وفتح باب لعالَم هذا العارف الكبير ، ليقوم به من هو أقدر منى على ذلك ، فالأميـر لم ينل القدر الذى يناسـبه من دراسة علـومـه ، **فهو** لا يقل فى فـتوحاته ومـقامـاته عن كبـار الصـوفيـة مثل ابن عـربى ، والنابلسى ، والجيلـى ، والشـعرانى ، وغـيرهم ، ورغم هذا فـهو مجـهـول عند أكـثر دارسى التصوف .

يقول الدكـتور يحيى بو عـزيز أستـاذ التاريخ فى جامـعة وهران : أنجز الأمير عملاً جليلاً ، وهو تأليف كتاب المواقف من ثلاثة أجزاء ما يزال مخطوطا حتى

هذه ال[illegible] ، ويحتاج إلى دراسة وتحقيق [1] . . يقول الدكتور يحيى بو عزيز هذا الكلام عـام ١٩٩٥م ، وكـتاب المواقف طبـع ثلاث مرات عـام ١٩٠٣ ، وعام ١٩٦٦ م ، وعام ١٩٨٣ م . . ويبـدو أن د . بو عزيز لم يقتنع بتـحقيق ممدوح حـقى الذى حقق الكتـاب ، وحقق ديوانه الشـعرى ، وكـتاب ذكـرى الغافل . . وأظن د . يحيى بو عزيز على حق ؛ فممـدوح حقى كثير الهجوم على الأمـير ، وليس له دراية بالتـصـوف ، ويتلقـف المآخـذ والأخطاء على الأمير ، ويتهمـه أحيانا بالتخلف وعدم مجاراة الحضـارة الغربية . . وأدعو الله أن يوفقنى لدراسة كتاب المواقف ببركة وأنفاس الأمير عبد القادر ؛ لأننى لست أهلاً لهذا الأمر .

ولما كان كتابى ـ كـما ذكرت ـ مقدمة ومدخل لمعـرفة الجانب الصوفى فى حياة الأمـير أذكر ما قام به الأمـير من جهد طيب ومشـكور فى دراسة الشيخ الأكبـر الذى أوذى بعد موته أكـثر مما أوذى فى حياتـه ، رغم تمسكه بالكتاب والسنة ، وتبحره فى علوم التفسير والحديث والفـقه ، لكن علو مقامه ومعارفه وعلومه وأذواقـه وفتوحـاته التى لم يصل إليها إلا الأفـراد الخارجين عن دائرة القطب الغوث ، وبعضهم أعلى من الغـوث كما ذكر ذلك أغلب العارفين فى مؤلفاتهم ، لكن كل هذا لم يمنع بعض الجـهلة من علماء الرسوم المجنونين من التطاول على الشيخ الأكبر واتهامه بصفات أنزه نفسى عن ذكرها .

أقول : قام الأمير عبد القادر اعترافا بفضل أستاذه الروحى ابن عربى عليه بشرح جواب السؤال السابع من أسئلة الحكيم الترمذى للشيخ الأكبر فى الموقف ٢٥٠ ، وفى نفس الموقف شرح أبيات الشيخ التى يقول فيها .

فلـولاه لما كنـــا ولولا نحن ما كانا

....

---

(١) سيرة الأمير عبد القادر مصطفى التهامى تحقيق يحيى بو عزيز ص ٧ .

وفى حوالى ٢٦ صفحة ، شرح الفص الإسماعيلى من(فصوص الحكم) فى الموقف ٣٥٥ ، وشرح الفص الشعيبى فى الموقف ٣٥٨ فى ٤٤ صفحة ، وأشار فى نفس الموقف إلى كتاب التجليات ولقاء الشيخ فى عالم المثال بالعارفين المنتقلين إلى ربهم كالإمام الجنيد والنفرى ، والشبلى والحلاج وأبى سعيد الخراز وإبراهيم الخواص وسيدنا أبى بكر الصديق ، وسيدنا عمر ابن الخطاب . . وشرح بعض أبواب الفتوحات المكية كالباب ٧٣ فى الأقطاب والأبدال والأوتاد وأولياء الله عموما فى الموقف ٢٨٥ ، والباب ٣٥٨ من الفتوحات المكية فى النفس الناطقة ، وشرح فى الموقف ٢٩٨ كثيراً من أبواب الفتوحات المكية فى حوالى أربعين صفحة ، وشرح فى الموقف ٣٠٨ الباب ٥٢٣ من الفتوحات ، وكل هذه الشروح تحتاج الى دراسة فى كتاب مستقل لذلك أشرنا إليها فقط .



الباب الرابع

تفسير الأمير الإشارى لبعض آيات القرآن الكريم

التفسير الإشارى : ما ورد من تفسير الأمير أغلبه من باب الإشارة والرمز والتفسير الإشارى للقرآن ، أو الصوفى ، أو الفيضى ، أو الإلقائى الغيبى ، أو التلقى الروحانى ، كلها بمعنى واحد لا ينكر صاحبها التفسير الظاهر ، ويقر كل تفسير صحيح لا يهدم ركنا من أركان الشريعة ولا يخل بالمعنى الظاهر .

والتفسير الإشارى يختلف تماماً عن التفسير الباطنى ، وتفسير فرق الشيعة المتطرفة .

وقد سئل الشيخ محمد خليل الخطيب الشاذلى عن التفسير الإشارى فأجاب :

التفسير الصوفى إذا لم يخالف الظاهر فنعم التفسير ، وإذا خالف الظاهر فالقائل به دجال لا صوفى ، فالصوفى لا يخالف الظاهر لأنه أمر بالعمل به ليستضئ باطنه .

فمن قال إن الصلوات الخمس : الحسن والحسين والسيدة زينب والسيدة فاطمة والسيدة خديجة فنقول : قاتلكم الله وقاتل تفسيركم .. ما أجهلكم !. ولكن من جاء بكناية باطنية تبدى أنه مفتوح عليه لم نقل له أنت وتفسيرك ؛ بل نقبله [(١)] .

ومن أقدم التفاسير الصوفية « **حقائق التفسير** » للسلمى ، ومن أسهلها فهماً وأعظمها فائدة للمريد والعارف « **لطائف الإشارات** » للقشيرى، أما عن التفسير الصوفى للقرآن المنسوب لابن عربى والمتداول فى الأسواق فابن عربى برئ من هذا التفسير ، وهو لكمال الدين الكاشانى الذى يقول عنه أستاذنا محمود محمود الغراب : تفسير الكاشانى لا يكاد يفهم منه شيئا ،لأنه ينحو

(١) سيرة الخطيب ، محمد محمود الخطيب ، ص ٩٢ .

إلى الفكر والاتجاه الباطنـي الذى يرمى القارئ فى متاهات الحيـرة ؛ فلا يعرف الخروج منها . .

وقد قام الأستاذ مـحمود بجمع ما يتعلق بالتفسيـر الإشارى للشيخ الأكبر ابن عربى فى أربعـة أجزاء فى كتاب «رحمـة من الرحمن فى تفسـير وإشارات القرآن» من كلام الشيخ الأكـبر ، وقد استغرق منه هذا العمل خمـسة وعشرين عاما فجزاه الله خيراً.

ومن البراهين اللطيفة الـتى تدل على أن التفسير الصوفى حقـيقة لا جدال فيها مـا ذكره القطب الغوث محمد مـهدى الرواس فى كتابه (**بوراق الحقائق**) يقول :

رأيت فى سياحتى الى الحـجاز والديار المصرية والشـامية أن الأحـمديـة « الرفـاعية » مـع كثرتـهم وشهـرتهم وكثـرة أوليائهم ، وتسلسل الأوليـاء فى طائفتهـم أنهم دون غيرهـم من رجال الطوائف بالمال والأمـاكن على الـغالب إلا من ندر « يقـصـد قلة المال والدنيـا فى أيديهم » فكوشـفت فى منازلتى أن استفت من الخضر عن هذا إذا رأيته .

وهناك وأنا أمـام القلعـة بحلب إذا به ـ عليه الســلام ـ فـقلت له : عليك السلام أفتنى ، وذكرت له القصة فتبسم وقال :الله تعالى يقول : ﴿ **وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ** ﴾ يريد أن التفسير فى هذه الآيـة : من نعمره عندنا ونعليه فى حضـرة قربـنا عند الخلق منكســا ، ثم قـال : أنت ذكـرت أنهم أكـثر الـقوم أولياء « يقـصد الرفاعـيـة » وأشهرهم رجـالاً وأعمهـم فتحـاً ، ومنزلتهم فى الديوان معلومة كـما رأيت ، قلت : نعم ، قـال : وهذا غاية التعـمير عند الله [1] . . (ويعتـبر هذا الكلام تفسيـر صوفى من الخضر عليـه السلام للآية الكريمة) .

ومن التفسير الصوفى يقول عبد القادر أحمد عطا :

التفسـير الحرفى لا يرىٰ إلا إعراب القـرآن واستعـاراته وأسلوبـه الجمـيل

---

(1) بوارق الحقائق ، محمد مهدى الرواسى ، ص ١٤٧ .

معنى . . والتفسير الصوفى يتخذ من التفسير الحرفى وسيلة لا غاية ، وله بعد ذلك دون القرآن . . ومن هنا كان التفسير الصوفى للقرآن أوزن قدراً من التفسير الحرفى ؛ فالتفسير الصوفى قد استنبط التفسير الحرفى وصعد منه إلى عوالم أخرى قد استعد لها الصوفى برياضة النفس التى أقفرت منها قلوب الحرفيين (١).

والتفسير الصوفى ليس نتيجة اعمال الذهن والفكر ،بل هو وهب الهى ، وفتح روحى يمنّ الله تعالى به على العارفين المحققين المستعدين لهذا الوهب ، وليس لإنسان محجوب غافل غارق فى حب الدنيا يقضى ليله فى النوم ونهاره فى الكلام والطعام والفضول ، ليس لمثل هذا المخلوق أن يقرأ التفسير الصوفى فضلا عن أن يهاجم أهل الله ويتطاول على كلامهم ، مهما أوتى من علم الظاهر ، فالتفسير الصوفى لا يفهمه إلا من كان له قلب . . واستمع إلى الأمير عبد القادر : إن الله تعالى قد عود فى أنه مهما أراد أن يأمرنى أو ينهانى أو يبشرنى أو يحذرنى أو يعلمنى علما ، أو يفتننى فى أمر استفتيه فيه إلا ويأخذنى منى مع بقاء الرسم ، ثم يلقى إلىّ ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن ثم يردنى إلىّ فأرجع بالآية قرير العين ثم يلهمنى ما أراد بالآية ، وأتلقى الآية من غير حرف ولا صوت ولا جهة ، وقد تلقيت والمنة لله تعالى نحو النصف من القرآن بهذا الطريق ، وأرجو من كرم الله تعالى أن لا أموت حتى استظهر القرآن كله فأنا بفضل الله محفوظ الوارد فى المصادر والموارد ، ليس للشيطان على سلطان إذ كلام الله لا يأتى به شيطان .

وكل آية تكلمت عليها إنما تلقيتها بهذا الطريق إلاّ ما ندر (٢) . . وبعد أن سمعت هذا الكلام من الامير عبد القادر ألا ترى معى - يا أخى الكريم - أن التفسير الصوفى من أصدق التفاسير وأقربها إلى المعنى المراد للحق سبحانه وتعالى ، وقد عرفنا من كلام الأمير ، أنه صادر من الحضرات القدسية التى

(١) التفسير الصوفى للقرآن وتحقيق كتاب اعجاز البيان لصدر الدين القونوى ، عبد القادر أحمد عطا ، ص ٦٧ .
(٢) الموقف الأول ، ج ١ / ٩ .

يدخلها العارفون بأرواحهم وأسرارهم « السر ألطف من الروح ».. وهذه الحضرات هي مصدر المعرفة اليقينية التي لا يدخلها أدنى شك ، وكل ما عدا هذا المصدر يدخله الظن والوهم والتخمين ، فلا ترد يا أخي كلام الأمير ، عسى الله أن يسلك بك طريق أهل الله ويفتح عليك فتذوق ما ذاقوا ، وتشاهد ما شاهدوا ؛ فإن اعترضت حرمت ولو سلكت .. قال أسيادنا : من اعترض على كلام أهل الله في مقاماتهم وأحوالهم حُرم الوصول إليها ولو سلك طريقهم عقاباً له على اعتراضه وقلة أدبه .

فليس للأطفال أن يتدخلوا بين الرجال ، ورجال الله هزلهم جد ، وجدهم قتل ، وأمرهم خطير وشأنهم كبير ، والأمير عبد القادر واحد من هؤلاء :

وإذا ضاق وقتك عن قراءة كتب التفسير الصوفي والمقدمات الطويلة التي وضعت كمدخل لهذه التفاسير ـ ويكفي مثلا أن تعرف أن عبد القادر أحمد عطا كتب مقدمة في مائة صفحة وأكثر لكتاب « إعجاز البيان في تأويل أم القرآن » للقونوي ،كي يهيئ القارئ للدخول على كلام القونوي في تفسير الفاتحة فقط .. إذا ضاق وقتك عن ذلك فعليك بكتاب (التفسير الإشاري للقرآن) لمحيي الدين الإسنوي ، وهو كتاب في ٦٣ صفحة فقط ، ويغني في بابه عن مطالعة المجلدات الضخمة ، وقد راجعه شيخنا الإمام محمد زكي إبراهيم [١].

ونبدأ بعرض تفسير الأمير لبعض آيات القرآن ، وقد اخترناها لسهولة فهم كلام الأمير ، ولتعلقها بسلوك المريدين ، ولم نذكر كل ما قاله الأمير ، وقمنا بتعليق بعد كل آية ، كي نزيد القارئ فائدة تنفعه في سلوكه الى الله .

---

(١) التفسير الإشاري للقرآن ، محيي الدين الإسنوي ، مطبوعات العشيرة المحمدية ١٩٩٥م.

★ **قوله تعالى :** ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

يقول الأمير :

هذه الآية الكريمة تلقيتها تلقيا غيبيا روحياً ، ومعناها أى بالنظر إلى معاملة الحق تعالى لرسوله ﷺ فإنه أعطاه ومنعه ، وضره ونفعه ، وسلط الأعداء وجعل الحرب دولا ، تارة له وتارة عليه ، وقبضه وبسطه ، وأجاب دعاءه ورده له أخرى ، وقال له : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ، ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ، ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ .

وهو ﷺ أسوة حسنة بالنظر إلى معاملته لربه من تحقيق العبودية والفقر إليه ، والاستسلام لفقره ، والرضى بقضائه ، والشكر على نعمائه ، والصبر على بلائه .

وهو ﷺ أسوة حسنة بالنظر إلى معاملة الخلق له بين مصدق ومكذب ومحب ومبغض ، آذوه بالقول والفعل ، وباشروه بكل مكروه ، وتحزبت عليه الأحزاب .

وهو ﷺ أسوة حسنة بالنظر إلى معاملته للخلق ، من محبته لهم وإرادة الخير لهم ، والصبر عليهم ، ورؤية وجه الحق فيهم ، ظلموه وحرموه فأعطى وجهلوا عليه فاحتمل وقطعوه فوصل ، فيجب على المريد العارف أن يجعل هذه الآية قبلته فى كل زمان ومكان (١) .

★ **تعليق :**

لاحظ أن الأمير اقتصر فى شرح الآية على مكارم الأخلاق ومقامات الصبر والرضا وتحمل أذى الخلق ، وكل هذه الشمائل المحمدية من شدائد الأعمال ، وما بعث الرسول إلا ليتمم مكارم الأخلاق ، ولا يعنى هذا أن

---

(١) الموقف الأول ، ج ١/ ١٠ .

الأمير أهل الإقتداء بالرسول ﷺ فى العبادات والطاعات ، حاشاه أن يقول بذلك لكن العبادات أحيانا تكون من أسهل التكاليف الشرعية على الإنسان ونعنى بالعبادات الصلاة والصيام ، وغير ذلك والا فالصبر عبادة، وانتظار الفرج عباده فالطاعات قد تكون شهوة نفس ورياء وإذا أورثت العبد التكبر والتعالى على بنى جنسه أهلكته وأبعدته وما أيسر الاقتداء بالرسول ﷺ فى لبس الجلباب الأبيض وتقصيرة والأكل على الأرض والتمسك بسنن العادات، والتمسك بها مع مكارم الأخلاق أكمل وأكمل ، فالمطلوب منا الاقتداء بالرسول ﷺ فى كل ما كان يفعله لكن المدار الأعلى على مكارم الأخلاق وما أيسر عليك أن تصلى وتصوم، ولكن ما أصعب أن تعطى من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتزهد فى الدنيا ولا تتكالب عليها ، وهذا مشاهد لنا جميعاً من حولنا كل يوم وكل ساعة ، فتجد الناس يكثرون من الصلاة والصوم والحج ، ثم تجد هذا الذى قام بكل أركان الإسلام ـ فى زعمه ـ يقطع رحمه ، ولا يسامح أحداً ، ويحتقر غيره « وكفى بالمرء إثما أن يحقر أخاه المسلم » .

ويتصارع مع أخيه ، بل يكاد يقتله من أجل عرض دنيوى زائل ، وهذا سر عدم وجود الأنوار فى قلوب العباد ، ومن مداخل إبليس على المريد ، أن يجعله يغالى فى العبادات الظاهرة وطلب العلم وارشاد الناس ، ويترك قلبه خراب يملؤه الحقد والحسد والبخل وحب الدنيا والتكبر ، وحب الشر لغيره والفرح بذلك ، والشماتة فى أخيه المسلم ومثله مثل من بنى بيتا وملأه قذارة ، ثم طلاه بطلاء أبيض نظيف ، ففاحت رائحته الكريهة لكل من اقترب منه « ومن أسرّ سريرة ألبسه الله ثوبها » .

فانظر يا أخى إلى مقصد القوم واعمل بإشاراتهم ، فإنهم يرون ما لا ترىٰ ، ويرون عمارة باطنك وظاهرك ، وغيرهم يريد لك عمارة ظاهرك فقط .

قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾

[سبأ :٤١]

يقول الأمير :

كنت ليلة بالمسجد الحرام متوجها للذكر وقد نامت العيون ؛ فجلس بالقرب منى يميناً وشمالاً أناس وجعلوا يذكرون الله تعالى فخطر فى قلبى أيّنا أهدى سبيلا (يبدو أن الأمير وقع فى نفسه شئ من هؤلاء الناس أو أنه استوحش منهم ، أو لم يسترح إليهم ولم يذكر ذلك) فبعد الخاطر بقريب أخذنى الحق تعالى ثم ألقى إلىّ قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ فعلمت أن عبادتهم كانت مشوبة بأغراض نفسية وحظوظ شهوانية ، وأقول تبعا للمحققين من أهل الله أن كل من عبد الله تعالى خوفاً من النار وطلباً للجنة أو ذكر الله لتوسعة الرزق وصرف الجاه إليه ، أو لرفع شر ظالم أو سمع فى الحديث من فعل العبادة الفلانية أعطاه الله كذا من الأجر فهذه كلها عبادة معلومة ، ليست بمقبولة إلا بالفضل والمنة .

إلا أن تكون هذه الأشياء المذكورة غير مقصودة وخطورها تابعاً لا حاملاً فلا بأس به قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ، وهذه الأشياء المذكورة كلها آحاد فهى شركاء ، والحق تعالى أمر عباده أن يعبدوه مخلصين له الدين أى العبادة أو الجزاء بأن لا يطلبوا جزاء إلا وجهه وهو يهبهم الأجور والدرجات ويقيهم السيئات والمكروهات ، وكل شريك معدوم أى مستور: اسم بلا مسمى ، وإليه يشير قوله ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ فإن الجن من الاجتنان وهو الاستتار ، وكل ما سوى الله مستور ستر العدم وإن ظهر للمحجوبين وجوداً .

وأقول : والله تعالى القائل على لسانى : أن كل من لم يسلك طريق القوم ويتحقق بعلومهم حتى يعرف نفسه لا يصح له إخلاص ، ولو كان أعبد الناس وأورعهم وأزهدهم وأكثرهم تدقيقاً وبحثاً عن دسائس النفوس وخفايا العيوب ، فإذا رحمه الله بمعرفة نفسه صح الإخلاص وتصير الجنة والنار

والأجور والدرجات والمخلوقات كأن الله ما خلقها فلا يعتبر إلا من حيث اعتبرها الحق [1].

★ تعليق :

اعلم يا أخى أن الأمير يطلب من المسلمين العمل لنيل رضا الله لا رضا أنفسهم ، ومن عمل من أجل نفسه لا من أجل الله فقد عبد نفسه ولم يعبد الله ، وإياك أن تفهم من كلام الأمير احتقار الجنة والدرجات والأجور التى أعدها الله لعباده العالمين بشرعه وسنة رسوله ﷺ وإذا تأملت الآيات الواردة فيمن عمل كذا فله كذا مثل: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ لا تجد أن الحق يقول من نهى النفس عن الهوى ليدخل الجنة ، أدخلناه الجنة ؛ فالله أمر بالعبادة لوجهه لا لغرض ، لكن النفس الشهوانية زحزحت الناس عن مقام الإخلاص وجعلتهم يعبدون الله من أجل شهواتهم الأخروية .

وإذا صفت النفس وتطهر القلب وتجلت الروح على العبد أدرك أن الله هو الذى وفقه للعبادة ، وهو الفاعل للعبادة فى شخص عبده ؛ فكيف يطلب العبد أجراً على توفيق الله له ، بل عليه أن يشكر الله على هذا التوفيق .

أما من كانت نفسه محجوبة ، قائمة كالصنم ، فإنه يرى نفسه وعبادته بل يتدلل بها على ربه ويقول: قمت الليل ، وصُمت ، وأديت الزكاة ؛ فلمَ أصابنى كذا ، وتطيب نفسه بعبادته ، وهو فى كل هذا مستدرج ممكور به ، وقصة العابد الذى عبد الله خمسمائة سنة فى جزيرة ، والتى وردت فى الحديث الشريف ، معروفة لنا جميعاً فقد قال هذا العبد بعد موته حين سمع قول الله تعالى للملائكة : ادخلوه الجنة برحمتى ؛ فقال العابد : بل بعملى ، فقال الله للملائكة : أدخلوه النار . . وأفهمه الحق أن عبادته كانت بتوفيق الله فثاب إلى رشده وقال : بل برحمتك يا رب ، فانظر إلى هذا العابد الذى عبد الله خمسمائة سنة وكاد أن يدخل النار لاعتقاده فى نفسه أنه يستحق الجنة ،

---

(١) الموقف الرابع ج ١ / ١١ .

وانظر إلى ما أنت فيه ؛ فالتواضع يا أخى . . وافهم كلام العارفين ، ولاتبادر برد كلام الأمير ، واشتغل بنفسك حتى تتخلص منها ، فتعبد الله بالله لله وهذا هو المطلوب .

★ وجه آخر :

اعلم أن الله أنزل كتابه لجميع عباده ، أبلدهم وأذكاهم وأغباهم وأكثرهم فطنة ، وهذا من الإعجاز ، فهل رأيت كتاباً يصلح للجاهل بالقراءة ، وتلميذ الابتدائى والإعدادى والثانوى وطالب الجامعة والأستاذ والعالم المخترع ، إن هذا الكتاب هو القرآن فمن فهم من آياته الإخلاص وعمل بذلك فقد اهتدى إلى الصواب ، وإلا فإن الله يأخذه شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى الإخلاص ،وهنا تظهر ضرورة الشيخ المرشد الذى يسارق تلميذ الابتدائى ويقول له : إذا ذاكرت ونجحت تدخل الإعدادى ،ولك هدية ، والتلميذ وراءه طريق طويل لا يشعر به ، هذا فى أمر الدنيا فما بالك بمعرفة الله .

★ قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ :

[النجم :٤٣]

يقول الأمير :

كنت متوجها إلى ذكر الله فى خلوتى ، فأخذنى الحق فسمعت قائلا يقول : إن الله تعالى ما أضحكنا وأبكانا فى الدنيا إلا ليضحك لنا فى الآخرة، فلما رجعت إلى نفسى علمت أن هذا تسلية وبشارة ، فإن السالك تتلون أحواله دائماً ، فتارة قبض وتارة بسط ، وتارة ضحك وتارة بكاء ،والذى يوجب ذلك مشاهدتان :

الأولى : مشاهدة ما من الله إليه من الستر عليه والإحسان إليه ، وأنه عبدالله وسائر إليه ، وأن الله سيرحمه ، ويرفع حجبه ، ويعرفه بنفسه ويجلسه مجالس الرضا مع الأحباب المخصوصين ؛ فهذه مشاهدة توجب الفرح والضحك والانبساط .

والثانية : مشاهدة ما منه إلى الله تعالى من سوء الأدب والتقصير وعدم شكر النعم وبُعده من حضرة الأحباب وتراكم الحجب وغلبة النفس والهوى واستيلاء حب الدنيا والشهوات على قلبه .

فمشاهدة هذه الأمور توجب القبض والحزن والبكاء بل توجب ازهاق الروح إن كانت له همة سنية ونفس [illegible] انية : فالسالك لا يخلو من هاتين الحالتين ؛ فإذا أراد الله رحمته أظهر له علاقة الرضى برفع الحجاب وأدناه من حضرة الأحباب .

ويشرح الأمير **مخاطبة الحق له** : ما أضحكنا وأبكانا فى الدنيا إلا ليضحك لنا فى بالآخره قائلا : المراد بقوله فى الدنيا حالة البدايه للسالك فى السلوك والسير إذا الدنيا مأخوذة من الدنو ، وهو القرب لكونها أقرب إلينا من الآخرة ، والمراد بالآخرة حاله السالك المتوجه حين يرحمه الله بالرضى وكشف الحجاب لأنها آخرة بالنسبة لحالته الأولى وما سميت آخره الا لتأخرها بالنسبة إلى الدنيا [1] .

★ تعليق :

يؤيد كلام الأمير ما قاله العارفون : الخوف والرجاء لعامة المؤمنين والقبض والبسط للسالك ، والهيبة والأنس للعارف وزوال الرسم ؛ فلا قبض ولا بسط ولا صباح ولا مساء للمحقق الواصل الذى ختم مقامات الولاية وأصبح بربه وهو مقام البقاء بعد الفناء أو الفرق الثانى بعد الجمع .

ونلاحظ أن الأمير لم يذكر الضحك والبكاء من أجل الدنيا ضاقت أو اتسعت فهذا لا يشغل أهل الله ، وحالهم لا يتغير أقبلت عليهم الدنيا أم أدبرت ، بل بعضهم ينقبض إذا أقبلت ، ويفرح إذا أدبرت ، كى لا تشغله عن الله ، وهذا يدلك على أن الأمير يخاطب السالكين طريق القوم ، لا كل أحد فلا كلام للعارفين مع أهل الدنيا ، بل مجالسة أهل الدنيا سم قاتل .

---

(١) الموقف (٢٧) ج ١ / ٢٢ .

★ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

[البقرة : ١٨٦]

يقول الأمير :

اعلم أن الله تعالى لا يعطى أحدًا ما يطلبه بلسان مقاله إلا إذا وافق طلب لسانه طلب استعداده ؛ فإذا خالف طلب الاستعداد طلب اللسان فلا يعطى تعالى إلا ما طلبه الاستعداد كائنا ما كان ذلك الطالب وذلك المطلوب ، فإذا سأل أحد من الحق شيئاً ولم يعطه إياه فإنما ذلك لكون استعداده طلب خلافه ، وتعالى الحق أن يمنع أحد عن بخل ، فالآية الكريمة وإن كانت مطلقة فى ظاهر اللفظ فهى مقيدة بطلب الاستعداد ، فإن مدار الأمر كله على طلب الاستعداد سواء طلب العبد أم لم يطلب ، والحق تعالى حكيم لا يعطى أحداً شيئاً هو غير طالب له باستعداده ، فلو عمد الملك مثلا إلى خزائن السلاح وأعطاها للعلماء لأنهم طلبوها ، وعمد إلى خزائن الكتب ففرقها على الجند لطلبهم إياها ، ما كان الملك حكيماً ؛ لأن العالم غير مستعد لاستعمال السلاح والحرب ولو طلب ذلك بلسانه ، والجندى غير مستعد لفهم الكتب ولو طلبها بلسانه والله عليم حكيم [1].

★ حقيقة الاستعداد وأن العلم تابع للمعلوم :

هذه الحقيقة عليها مدار أمور كثيرة حيّرت الجاهل والعالم ، وفيها سر القدرة الذى أخفاه الله عن خلقه ، ومعرفتها ذوقاً وكشفاً لا علماً فكريا ، تكشف لصاحبها أسراراً غامضة لا تُفش إلا لأهلها ، وقد شغلت هذه الحقيقة الأمير عبد القادر بدرجة كبيرة فهو يتحرى عنها فى كتاب المواقف فى الموقف ٦٩ و ٩٧ و ١٢٣ و ١٢٩ و١٦٩ و ٢٠٦ و ٢٣١ و ٢٥٩ و ٣٣٠ ويشير إليها باختصار فى مواقف أخرى .

وليس الأمير هو أول من قال بالاستعداد ، وأن العلم تابع للمعلوم ؛ فقد

(١) الموقف ٣٢ ج ١ / ٢٤ .

سبقه إلى ذلك شيخه الروحى محيى الدين بن عربى ، ولكن الأمير شرح هذه الحقيقة وأطال فى تفصيلها ، وقد أفرد لها ابن عربى باباً فى الفتوحات المكية هو الباب الحادى عشر وأربعمائة تحت عنوان « معرفة منازله فيسبق عليه الكتاب فيدخل النار من حضرة كاد لا يدخل النار » .

يرى الشيخ الأكبر ، ونقول « يرى » مجازاً ؛ فمعرفة الشيخ نتيجة ذوق ومشاهدة ؛ فقوله حقيقة وقانون غيبى وليس رأى ، يقول بأن الخواتيم على حكم السوابق ، ولا حكم إلا بما سبق به الكتاب الإلهى « فانظر أيها الولى الحميم إلى ما يحوك فى صدرك ولا تنظر إلى العوارض ، فإنك بحسب ما يحوك فى صدرك يختم لك ، ولا تنظر إلى ما يبدو للناس منك ، ولا تعوّل إلا على ما يحوك فى صدرك ، إلا أن الناس فى غفلة عما نبهتهم عليه ، والله ما كتب إلا ما علم ، ولا علم الا ما شهد مَن صورّ المعلومات على ما هى عليه ، ويعلم ذوق ذلك من أهل الله من علم الكوائن قبل تكوينها : فلا يخف سبق الكتاب عليه ، وإنما يخاف نفسه ؛ فلُمْ نفسك لا تعترض على الكتاب ، والعلم تابع للمعلوم ما هو المعلوم تابع للعلم ، وهذه مسألة دقيقة ما نبّه أحد عليها ، إذا تحققتها ذوقا وكشفاً لا يمكنك أن تنكرها ، ولو لم يكن فى هذا الكتاب « الفتوحات المكية » إلا هذه المسألة لكانت كافية لكل صاحب نظر سديد وعقل سليم »[1] .

ويقول الأمير فى هذه المسألة فى الموقف ٦٩ :

ربما طلب السالك شيئاً يراه خيراً له فكان فيه هلاكه وشرّه فالله تعالى يقول للسالكين : لا تعلمونى بجزائكم ولا تخبرونى بحاجاتكم وحالكم فإنى عليم بما فى السموات والأرض ، وأعلم كل مخلوق ، وما يصلحه وما يطلبه لسان استعداده ، وبما تقضيه الحكمة بحيث لو اطلع كل سائل عليها لكان راضياً بما أعطيته من خير وشر ونفع وضر ، ولو اطلع العبد علي باطن الحقيقة والأمر ما سأل إلا ما أعطاه الحق كائناً ما كان .

(١) الفتوحات المكية ، ابن عربى ، المجلد الرابع ، ص ١٥ بتصرف .

ويقول فى الموقف ٩٧ :

الاستعداد هو الأصل ، والأسباب الخارجية تابعة له ، فالعلم تابع للمعلوم ، فالظاهر عين الباطن ، والغيب عين الشهادة ، ولا يكون هنا ما ليس هناك ، ولا يقول شئ : يا رب لمَ جعلتنى أنا فهلاً جعلتنى غيرى فإنه غير معقول ، وبهذا كانت الحجة البالغة له تعالى على مخلوقاته ، وإليه يشير حديث : « كل ميسر لما خلق له » [1] وحديث : « **إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بين وبين الجنة إلا شبراً أو ذراعاً فيسبق عليه الكتاب** .. »[2] الحديث بطوله ؛ فليس فى الكتاب إلا الاستعداد الذى عليه المعلوم ، والاستعداد الجزئى للعمل لا ثمرة له كاستعداد الإنسان لطلب شئ بالدعاء أو السعى فيه ولا استعداد له لقبول المطلوب بحيث لو أعطيه لرده وكرهه .

ويقول فى الموقف ١٢٣ :

قال إمام العارفين قدوتنا محى الدين :

إن معلومات الحق ـ تعالى ـ أعطته العلم من نفسها : « العلم تابع للمعلوم » . .

واعترض هذا القول العارف الكبير عبد الكريم الجيلى فقال :

إن المعلومات إنما اقتضت ما علمها الحق عليه بالعلم الأصلى الكلى النفسى قبل خلقها وإيجادها فإنها ما تعينت فى العلم الإلهى إلا بما علمها لا بما اقتضته ذواتها وليس لمثلى أن يتتبع سهو الأكابر .

ولا اختلاف بين الشيخين عند من يعلم ، وفى أثناء كتابى لهذا الموقف ألقى عليّ فى الواقعة قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ ﴾ وأُلهمت أن الوارد يشير إلى توبيخ من لا يصدق بكلام الإمام محيى الدين ،وأن كلامه من عند الله تعالى كما قال فى الفتوحات : ما وضعت كلمة إلا بإلقاء روحانى فى قلب كيانى ، أو كما قال ، فيجب الانقياد لكلامه والخضوع لمعارفه فإنه الوارث الكامل ﷺ .

---

(١) رواه أحمد والترمذى والبخارى ومسلم .

(٢) متفق عليه.

وقال فى الموقف ١٢٩ :

سؤال الاستعداد أى استعداد كان مقبول مجاب ولا بد ، سواء قارنه سؤال اللسان أم لا ، لكن إذا قصد السائل التعبد بسؤاله واظهار الفاقة كما هو الحكمة فى مشروعية الدعاء ، يجاب بالحسنات وتكفير السيئات ، لا بعين ما سائل .

وقال فى الموقف ٢٠٦ :

عطاء الله ومنعه وضره ونفعه تبع للاستحقاق والاستعدادات الكلية التى هى حقائق الأشياء ، فلو ظلم الله أحداً أو نقصه مما يستحقه باستعداده لكان نقصه من حقيقة استعداده التى هو ، بها هو ، وذلك غير معقول ، ولو زاد أحداً فوق ما يستحقه لزاد له على حقيقته وهو محال أيضاً ، هذا حكم الاستعداد الكلى ، وأما الاستعداد الجزئى فليس له هذا ، ولا هو موجب لحصول ما يطلب فالاستعداد الجزئى لا أثر له ، فإنه معلوم مجهول ، بخلاف الاستعداد الكلى فإنه حقيقة المخلوق .

وقال فى الموقف ٢٣١ :

الذين كفروا باستعدادهم لا يمكن إيمانهم بعد ايجادهم ، فإن وقوع خلاف المعلوم محال ، ولا يقال أما امتنع إيمانهم لما خطّه القلم الأعلى فى اللوح المحفوظ ، لأنا نقول : ومن أى حضرة استمد القلم ما كتب ؟ وهى حضرة العلم بالمعلومات واستعدادتها وأحوالها التى تكون عليها إذا وُجدت. أ .هـ .

لا تفهم يا أخى من كل هذا الكلام الذى ذكره الأمير عبد القادر فى حقيقة الاستعداد ، القول بالجبر ، فإن هذا القول مرفوض عند أهل السنة ، وحضرة الاستعداد مستمدة من سر القدر الذى لم يطلع عليه مخلوق ، ومن اطّلع على الأسرار الإلهية علم أن الإنسان مخير وله إرادة ، وإلا لما كلّفه الله تعالى وحاسبه ، ولله الحجة البالغة على خلقه .

وكلام الأمير والشيخ الأكبر وغيرهما من العارفين فى هذه المسألة ، إنما هو تقريب لمعانى الحقائق التى كوشفوا بها ، ولا يمكن فهمها بأدلة وبراهين

ولكن بالذوق والمشـاهدة ، فاعـمل يا أخى على صـقل مرآة قلبك بالمجـاهدة والرياضة علـى طريق الكتاب والسنة ، حـتى تتذوق هذه الحقـائق ، ويسـهل عليك فهم كلام العارفين ، والله يتولى هداك .

★ **قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾** [محمد : ١٩]

يقول الأمير :

أمر الله عباده بمعرفة مرتبة ذاته وهى الألوهية ، وما أمرهم بمعرفة ذاته التى هى الغيب المطلق والوجـود البحت ، بل نهاهم عن طلب ذلك قـال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ، وقال ﷺ : « **تفكروا فى آلاء الله ، ولا تتفكروا فى ذاته** » ؛ فـما أمـرنا إلا بمعـرفـة الألوهية الـتى هى مرتبـة الذات وظهـور الصفات؛ والذات من حيث هـو لايدرك حساً ولا عقلا ولا كشفـاً ، بخلافها من حيث مرتبة الألوهية فإنها تدرك حساً وعقلاً وكشفاً .

والمتكلمون فى التوحيد خلطوا الأمر وحيّروا الفكر ، وخبطوا خبط عشواء فى ليلة ظلماء ،فكلامهم إن كان فى الذات البحت فـالذات لا كلام فيها بنفى ولا إثبات ، وإن كان فى الألوهية فهى لا حجر عليـها ولا حصر ولا تقييد . والذات لا خبـر عنها ولا وصف ولا اسم ولا حـكم ولا رسم ، المخبر عـنها صامت ، والناظر إليها باهت . .

والألوهية مطلقة مقيدة جامعـة للضدين ؛ ففيها الظاهر والباطن ، والأول والآخـر ، ومن نظر فى قـول المتكلمين : الحق يكون كـذا ولا يكون كـذا ، وليس هو كذا ، ولا يدرى أكـلامهم فى الذات المطلق المحذور فـيه الكـلام أم فى مـرتـبـة الألوهـيـة التى جـاءت الشـرائع والكتب المنـزلة فى أوصافـهـا بالمتضادات ؟! .

فـإذا رددنا ما وصف الحق به نفـسه على مـا يليق بكبـريائه وما قـبلناه ، وخضنا بأفكارنا فيما وصفته رسل الله كنا جاهلين بل كنا غير مؤمنين بكلام الله ورسله ، بل مؤمنين بما حسّنته عـقولنا وأدت إليه أفكارنا ، نعوذ بالله أن نكون من الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً [١] .

---

(١) الموقف ٣٥ ج ١ / ٢٥ .

★ تعليق وإيضاح :

أهل الله العارفين ، هم أعـرف الناس بربهم ، أهل التنزيه والتشبـيه الذى أمـر الله به عبـاده ، فمن غـالى فى التنزيه فـقـد عرف الله بما لا يرضـاه منه وكذلك من فعل ذلك فى التشبيه ، ومـا يهمنا فى هذه المسألة ، وكما ظهر لنا من كلام الأمـير ، أن اعتـقاد القوم يمنع الخـوض فى ذات الحق ، وهذا وحده كفـيل أن يدفع عنهم تهم الحلول والإتحاد إذا كـانوا يمنعون مـجرد التـفكير فى الذات ؛ فكيف يدّعـون أن الله تعالى يحل فـيهم أو يتـحدون به !! ، هذا لا يقول به عاقل !! .

والمسألة ببساطة أن العارف يدخل حـضرات إلـُهية ، ومنازلات ، ويفنى فى حضرات الأفعال والأسماء والصفات ، فينطق بما شاهده فى هذه الحضرات لينفع بكلامه عـارفاً مثله ، ويبـصرّه بأدب هذه الحضـرات إذا نزلها ، وإذا لم يتمكن العارف من مقامه ويتقن الوقوف فيه والإحاطة به ربما نطق بما لا يرضاه عامة الناس بل أهل الله أنفسهم ، وهو مـا يسمونه الشطح وهو عندهم رعونة نفس وادعاء ونقص ، أمـا من نطق عن إذن إلـهى فـلا لوم عليه ، ويا أخى ليس لمحجوب مسكين مثلى ومثلك أن يعـترض على ما لم يصل إليه ذوقه فإذا لاح لك فى كلام الأميـر ما تشم منه رائحة الحلول والاتحاد : مثل قـوله شعراً فى افتتاحية كتاب المواقف عن نفسه :

فـما بالهـــم يدعونه عبـد قادر ولـم يبـق إلا قـادر ماله عبـد
لقد بـاد من قد كان من قـبل بائداً وزال خيـال الظـل وارتفع السد

فلا تفهم الأمير بما لا يجـوز فتكون من أهل الحرمان ، وادع الله أن يفتح عليك بذوق هذه المواجيد واستمع إليه فى نهاية هذه القصيدة يقول :

لا فاعذروا من ذاق إذ ضاق صدره كما أن قـد ذاق عـاذركم يـغـدو

وطب نفسا فإنه يعذرك لعـدم ذوقك ، وسنزيد المسألة إيضاحاً بما لا يترك فى نفسك بقية شك وارتياب فى الموقف التالى :

★ **قوله تعالى :** ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾

[آل عمران : ٣١]

يقول الأمير :

محبة الذات الغنية عن العالمين التى لا تطلب العالم ولا يطلبها محال لأن المحبة لا تكون إلا لمناسبة ، ولا مناسبة بين الخلق والذات البحت ، فالعبد لا يحب الذات من حيث هى هى ، لأن ما لا يسمى ولا يوصف ولا يعلم لا يحب ، والمحبوب هو مرتبة الصفات وحضرة النسب والإضافات ، فما أحب محب إلا حضرة الجمال ونعوث الأفضال والرحمة ونحو ذلك . .

وعند التحقيق ما أحب محب إلا آثار صفات الجمال ؛ بل ما أحب إلا نفسه ، ومن هنا قال محققوا العارفين : لا يكون أنسى بالذات العلية أبدا لعدم المناسبة والمجانسة .

وأشار الرسول ﷺ إلى أن محبة الله تعالى لا تكون إلا من وجه إحسانه إلينا ،وأن الذات البحت الغيب المطلق لا تتعلق به محبة فقال ﷺ : « **أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة** » أى من وجه كونه منعماً رحيماً ستاراً إلى نحو ذلك وهى مرتبة الصفات المسماة بالحقيقة المحمدية والإنسان الكامل وحقيقة الحقائق وغير ذلك [١] .

★ **قوله تعالى:** ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : ١١]

يقول الأمير :

هذه الآية الكريمة ألقيت علىّ بالإلقاء الغيبى مراراً عديدة لا أحصيها ، ولا يخفى ما قاله عامة أهل التفسير ، ومما ألقى علىّ فيها أن المراد بالنعمة هنا العلم والمعرفة بالله تعالى ، والعلم بما جاءت به الرسل عليهم السلام ، وهذه النعمة أعظم النعم ،وإطلاق النعمة على غيرها مجاز بالنسبة إليها .

والمراد بالتحدث بها إفشاؤها وبثها لمستحقيها من المستعدين لقبولها ، إذ ما

---

(١) الموقف (٧٢) ، ج ١ / ٣١ .

كل علم يصلح لكل الناس ، أو يكون المراد اظهار النعمة بما هو أعمّ من القول والفعل ، ومن بعض نعم الله على أننى منذ رحمنى الله تعالى بمعرفة نفسى ما كان الخطاب لى والإلقاء علىّ إلا بالقرآن الكريم ، والمناجاة بالقرآن من بشائر الوراثة المحمدية فإن القوم قالوا : كل من نوجى بلغة نبى فهو وارث لذلك النبى صاحب تلك اللغة ، ومن نوجى بالقرآن كان وارثاً لجميع الأنبياء وهو المحمدى لأن القرآن متضمن لجميع اللغات .

ثم يذكر الأمير ما حدث له بطيبة المباركة من لقاء روحى بالرسول ﷺ وبشارات للأمير بأنه ينتسب للرسول ﷺ صلبا وروحاً . .

ثم يقول :

قمت إلى محل عزلتى فدخل علىّ شيخ من أهل الطريق فقال لى : إذا ما أردت أن تتوجه إلى الرسول ﷺ فاجعل بينك وبينه واسطة من الأكابر مثل عبد القادر الجيلانى ، أو محيى الدين الحاتمى ، أو أبو الحسن الشاذلى وأمثالهم فقلت : حتى استأذن سيدى ومولاى الذى أنا فى أعتابه ، فتوجهت اذكر الله فصعقت فألقى على قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فلما رجعت إلى حسى حمدت الله ، وعندما رجع عندى ذلك الشيخ قلت له : إن سيدى ومولاى ما أحب أن تكون بينى وبينه واسطة ، وأخبرنى أنه أولى بى من كل أحد حتى من نفسى [1] .

★ تعليق :

النعم على الحقيقة ، هى ما ذكرها الأمير ، من معرفة الله ومحبة رسول الله ﷺ ، والعناية الخاصة والرعاية الإلهية للعبد ، وملاحظة الروح المحمدى له ، وتوجيهه فى كل صغيرة وكبيرة بإذن إلهى، أما نعم الدنيا من مسكن فاخر وأكل شهى ومال كثير ومتاع زائل فقد تكون نعم لمن لا يستعملها فى الحق المشروع ، وهذا ظاهر لنا جميعا ، يقول سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « سبحان من اشتدت نقمته على أعدائه فى سعة نعمته ، وسبحان من اتسعت رحمته لأحبابه فى شدة نقمته » .

---

(١) الموقف (٨٣) ج ١ / ٤٧ .

ويتضح لك - يا أخى - فى هذا الموقف أن الامير وصل إلى مقام صار فيه الرسول ﷺ شيخه ومربيه وليس بينهما واسطة ، وتلك هى النعمة العظمى التى يُتحدث بها .

★ **قوله تعالى :** ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ . [الأحزاب : ٧٢]

يقول الأمير :

الأمانة هى الخلافة كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ وهو آدم عليه السلام ، ومعناها التحقيق بجميع الأسماء الإلهية ، وعرضها على السموات والأرض والجبال ، ليس لحملها بالفعل ، بل لأنها لا استعداد لها لحمل الأمانة ، والحمل بغير استعداد محال ، ويتعالى الله العليم الحكيم عن ذلك ولكن ليظهر فضل الإنسان وشرفه ، حيث أبت السموات والأرض والجبال من حملها وأشفقن منها ، مع كونها أكبر من خلق الناس لعلمها أن حاملها لا بد أن يوصف بالأضداد ويظهر بها ؛ فخافت من قبول هذا الأمر واختارت السلامة ، وأنشد لسان حالها :

وقائلة ما لى أراك مجانباً ... أموراً وفيها للتجارة مربح

فقلت لها مالى بربحك حاجة ... ونحن أناس بالسلامة نفرح

وحملها الإنسان الكامل بالفعل ، لا مطلق المسمى إنساناً ؛ فالإنسان منه الكامل ومنه الانسان الحيوان ، إنه كان ظلوماً أى كثير الظلم لنفسه ، وهذا مدح لأنه من المصطفين المختارين ، جهولا أى كثير الجهل بنفسه وبربه لمعرفته.

بالأسماء الإلهية التى تتوارد عليه وتتعاقب على الدوام ، وجهله بربه لكثرة التجليات الإلهيه إذ لا يتكرر تجل أبد الآبدين ، ولا يشبه تجل تجليا أبداً ، وهذا الجهل بمعنى الحيرة الذى سأل الرسول ﷺ الزيادة منه فقال ﷺ : « اللهم زدنى فيك تحيراً » ، وتلك حيرة المعرفة لا حيرة العوام المحجوبين [1] .

---

(١) الموقف (١٧٨) ج ١ / ١١٧ .

★ **تعليق وايضاح :**

اعلم - يا أخى - أن كل ما تشاهده من صفات البشر وتظنها إبعاد هى تقرب ، وما تحسبه شراً هو الخير ، والله تعالى معك لا ضدك ؛ فأزل الحجاب بينك وبين ربك يتضح لك كل ما هو مستغلق مبهم ؛ فخلقك من تراب هو منتهى القرب ؛ فالأرض جعلها الله ذلولاً من الذل والخضوع ، والذل والانكسار هما بابا الدخول إلى حضرة الله ، والوصول إلى حضرة الحق سبيل إلى حمل الأمانة ؛ فالله قرب عليك الطريق وأنت تنفر من هذا التقريب ، وأراد أن يصطفيك فسلط عليك الأمراض والفقر وأذى الخلق ،وكل ما سواه ، كى لا تركن إلى غيره فحسبت كل هذا الخير شراً وإهانة ، وجمع فيك كل ما تبدد فى العوالم العلوية والسفلية فجعل عبادتك ترجح على عبادة العالم كله بخلقك على الصورة الظاهرة والباطنية ؛ فماذا يفعل الله لك بعد ذلك .

وهنا سر استعدادك لحمل الأمانة فأنت نسخة من جميع العوالم ، ولا يستطيع حمل الأمانة غيرك ؛ فبالله عليك تقلل من قدر نفسك ، وتشتغل بتوافه الأمور وسفاسفها وأنت الأكرام بإكرام الله لك ، والمفضل بتفضيل الله لك ، ولن تستطيع حمل الأمانة إلا بسلوك طريق أهل الله فإن لم تستطع ذلك فتقرب إلى من حملوا الأمانة على الحقيقة ، كى تحشر معهم ،و « **المرء مع من أحب** » .

★ **قوله تعالى :** ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧]

يقول الأمير :

الخطاب للرسول ﷺ والمراد نحن ، علّمه أن الصبر المحمود والرضى المطلوب من العبد هو الذى يكون بالله ، فتقرّب بالنوافل حتى يحبك الله ، فبالله تسمع وتُبصر ، وتبصر وتفعل ، وهكذا فى جميع أقوالك وأفعالك تكون بالله لا بنفسك ، وبين الصبر بالله والصبر بالنفس فرقان ، فمن صبر بالله وإن تألم ظاهره ودمعت عيناه فمحل ذلك النفس الحيوانية ، وهو فى باطنه ناعم البال قرير العين مستنير الباطن لأنه واثق من حسن تدبير الله تعالى له ، ويكون

الحق هو الحامل لما أنزله بعبده ، وأما من كان صبره بنفسه فإنه وإن تجلد وحبس نفسه ظاهراً فهو كسيف البال ، مظلم الأرجاء متألم الباطن متهم لربه فيما أنزله به ، يتصور أن ما نزل به يمكن أن لا يكون ، وهذا ليس هو الصبر المرضي المحمود المطلوب من العبد ؛ بل هذا مقاومة الأمر الإلهي وتشجع على الله .

وروى عن الإمام على كرم الله وجهه : أنه أنّ فى مرضه (من الأنين وهو قول آه ، وبعض العارفين وضع رسالة فى الذكر بالاسم آه [1] فقيل له : أتئن وأنت علىّ ؟ فقال : أما على الله فلا أتشجّع . .

والآلام الطبيعية المحسوسة ليس فى وسع الإنسان رفعها بخلاف الآلام النفسية فإن فى وسعه رفعها ، والصبر من المقامات التى لا يفارقها العبد إلى الممات وهو عام على الخير والشر ، إذ لكل ابتلاء وفتنة تمحيص ؛ فالصبر على الخير هو الثبات على الحد المشروع ، ومن هذا الصبر على المعارف الالهية والأسرار الربانية بعدم إذاعتها لغير أهلها ، وقليل فاعله ، والكلام على الصبر يطول [2] .

★ تعليق وايضاح :

الله يبتليك لتتضرع إليه وتجأر ، وتطلب كشف الضر والبلاء ، ومن الأخطاء التى يقع فيها المريد السالك وعامة المسلمين أن العبد إذا أصابته محنة تجلد وقاوم أمام الله ، وظن أن هذا صبر حتى أن بعضهم يدعو : اللهم إن كان هذا يرضيك فزدنى منه . . وفى هذا شعور بالنفس ونفخ الغرور فيها ، وهذا مذموم . . وأجمع العارفون أن هذا حال ناقص .

يقول مولانا عبد الغنى النابلسى : مات أحد أبنائى فوجدتنى أضحك

---

(١) واضع الرسالة فى اسم الآه هو الشيخ محمد الحسينى الظواهرى شيخ الأزهر لعهده والرسالة مطبوعة بأواخر كتاب (نور التحقيق) ، حامد صقر ، ط دار التأليف ١٩٧٠ ، ص ٢٦٧ .

(٢) الموقف ١٨٩ ج ١ / ١٢٣ .

ومسروراً بذلك حتى تجاوزت هذا الحـال ، وعلمت أن اللائق بهذا الحال الحزن والبكاء . . وبكى أحـد العارفين حين أصابه الجـوع فسأله مـريده : أتبكى من الجـوع ؟ فقـال : نعم إنما جوعنى الله لأبـكى . . وقد بكى الكامل الأكـمل محـمد ﷺ حين مات ولده إبراهيم . . وبكى سـيدنا يعقوب عليـه السلام على فقد ولده يوسف حتى أبيضت عـيناه من الحزن . . ودعا سيدنا أيوب ربه فى كشف ما نزل به من ضر . . والرسل عليهم السلام قدوتنا فى السلوك .

أما صاحب الحـال الجاهل بمقام الابتلاء ، فـهو يقاوم القهـر الإلـهى ولا طاقة له بذلك ، وحال العبد العجز والضعف ؛ فافهم يا أخى حقائق الأمور ، واعلم أن الشكوى إلى الله نعم الشكوى ، أما الشكوى لغيـره فهى مذمومة ، وتجلدك أمام سطوات الجلال والقهر الإلـهى جهل منك ووجود بقيّه نفْس فيك فالله يبـتليك لتعـرفه وتظهـر الخضـوع والذل فى حضـرته ، لا لتستـغنى عنه وتكتفى بخداع نفـسك وتسويلها لك أنك قادر وقوى وشجـاع ؛ فتخلّص من هذه الصفة المذمومـة ، ألا وهى مقاومة القهر الإلـهى ، واقـتد بالرسل عليهم السلام والعارفين المحققين ، لا بأهل الأحوال الناقصين

★ مزيد إيضاح :

ما ذكـرناه هو شأن المريد فى مسـألة البلاء ، أما العـارف المحقق فأحـيانا يسكت تحت البلاء ، وهو لا يفـعل ذلك إلا بإذن إلـهى فهو بحـسب ما يلقى إليه من الصبر والسكون ، أو الجزع والبكاء والتـضرع ، فهو يدور مع ما يجده فى قلبه من إلقاء إلـهى ، والمشارب مختلفة ، وكلهم على حق ؛ فلا تعارض بين العارفين ، وكل يـعمـل بحـكم المقـام الذى هـو فـيـه ؛ فقد قـال سيـدنا عبد القـادر الجيلانى : الولى سندان يُدَق عليه ولا ينطق . . وجُـرحت السيدة رابعة العدوية فلم تشـعر وقالت : انشغالى بالله أنسـانى ما أصابنى . . ولكن اللائق بالمريد السالك كثرة الدعاء والتضرع والبكاء إذا ابتلاه الله تعالى .



★ **قوله تعالى :** ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ [الأنعام ١٤٨]

يقول الأمير

[كلامهم] هذا كلام حق أريد باطل . فإنهم يقولون لا يقع إلا ما شاء الله وهذا حق ، ووجه إرداتهم الباطل بهذا الحق أنهم جعلوا كل ما شاءه الحق بعباده هو مرضى له وهذا باطل ، فإن الحق يشاء بعباده ما علمه منهم وما تقتضيه حقائقهم من خير وشر ، وتوحيد وكفر ، ومشيئة الله لأمر ليست عنواناً على محبته له ورضاه به ، فإنه لا يرضى لعباده الكفر ، وقد شاء كفر كثيرين منهم ، ولو كان كل ما يشاء بعباده خيراً للزم أن يكون إرسال الرسل وتشريع الشرائع عبثاً فإنها جاءت بالأمر والنهى ، ولذلك قال الله لهم ﴿ هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ وهذا العلم هو المتعلق بسر القدر . وما فعلوا ما فعلوا إلا بالظن ، والظن أكذب الحديث ، فإنه خطرات نفسانية يوحيها الشيطان إلى أوليائه فلا حجة لهم بمشيئة الله تعالى على إشراكهم ﴿ فلله الحجة البالغة ﴾ .

★ تعليق وإيضاح :

اعلم - **يا أخى** - أن جهل علم المشيئة والإرادة ، والأمر والنهى ، أوقع أغلب الناس فى زلات عظيمة ، ولم ينج من أوحال هذه المسألة إلا العارف المحقق الذى اتبع الأمر والنهى وسار على الصراط المستقيم ، وانقطع عنه سلطان الشيطان ودسائس النفس وتلبيس الفكر والعقل

ولا نجاة من هذه الورطة إلا باتباع الأمر والنهى الإلهى وحذار حذار - يا أخى - أن تأخذ أقوال العارفين حجة لمعاصيك ، وتعمل بها وأنت لم تصل إلى مقامهم ، من قول الامام الجنيد حين سئل ما مراد الله من العباد ؟ فقال : **ما هم فيه يشير إلى المشيئة والإرادة** .

وقول أحد العارفين : أنا كالباب إن حركنى الله تحركت ، وإن أسكننى سكنت

وقول عبد الكريم الجيلى فى عينيته المشهورة :

أرانى كالآلات وهو محركى   أنا قلمٌ والاقتــدار أصــابــع

وغيــر هذا من أقوال ســاداتنا ؛ فاعلم أنهم مـا قالوا هذا الكـلام إلا بعد تحقـقهم بقرب الفرائض والنوافل ووصـولهم لمقام البقـاء بعد الفناء ، وهذا لا يكون إلا بعد ذبح النفس بسيف المجاهدة ألف مرة ، وبعد عناء وتعب ومشقة وابتلاء ،وصف الإمام الجيلى هذه الشدائد بأنـها نصيب السالك من جهنم فى الدنيا . وذلك لهولها وقسوتهـا حتى أنهم قالوا : عذاب النار أهون مما يصيب السالك من عذاب السلوك ، فإن وصلت إلى مقـامهم فاعمل بكلامهم ، وإلا فسـر على شاطئ الحـقائق ، ولا تنزل إلى لجُـة بحرها فتـهلك ، ولا تلم إلا نفسك

ومشكلة الجبر والاختيار لم يعرفهـا الشيخ الأكبر المعرفة الذوقية رغم علو مقامـه إلا بعد أن كان عمـره ٧٣ سنة كما ذكر ذلك فى الفـتوحات فى المجلد الأول ص ٦١٧ ، والمجلد الثانى ص ٢٠٤ ، وقد لوح بعلمها رمزاً وإشارة ، ولم يصرح بما هو الأمـر عليه فعليك باتباع الأمـر والنهى ، ولا تحتج بالإرادة والمشيئة فسر القدر مـن علم الله الذاتى ، وذاته تعالى مجهولة ، وعلمه الذاتى مجهول لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبى مرُسل ، والله تعالى أعلم .

فـفـرق بين الإرادة والمشيئة والأمـر والنهى ، فالإرادة اقتضت وجـود الشر والكفر والمرض والظلم ، والأمر الإلـهى المتوجه علينا أن لا نفعل الشر والظلم وإزالة المرض . .

ونبـسط لك المشكلة أكثر : أراد الله تعالى أن يمرض المريض وأمـر الطبيب بعلاجه ، فـعلى الطبيب اتباع الأمر ، ولو اتبع الإرادة وسـاعدها لترك المريض بلا علاج ، بل سارع فى قتله ارضاءً لـلإرادة والمشيئة ، وقس كل الأمور على ذلك



★ قوله تعالى : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذين يفْرحُون بما أَتوْا ويُحبُّون أن يُحمدُوا بما لمْ يفْعلُوا فلا تَحْسبَنَّهُمْ بمفَازةٍ منَ الْعذاب ولهُمْ عذابٌ أليمٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٨]

يقول الأمير :

اعلم أن هذه الآية قـرئت (ولا يحسـبن) باليـاء ، أى : لا يظنَ الذين يفرحون بما صدر منهم من الطاعـات والعبادات ظاهراً ، وهم مع ذلك يحبون أن يحمدهم الناس عليـها ويعظمونهم وهذا رياء وشرك ، وهم فى الحقـيقة لم يفعلوا شيـئاً يستحـقون به الحمد والثناء ، وإنما الفاعل بـهم الله تعالى ، فهم محل ظهور فعله ، واستعداداتهم اقتضت هذا الشرك ؛ فخلقه الله فى صورهم وهم مع هذا الشرك يرجون الفوز بالجنة والنجاة من النار ﴿ فلا تَحْسبَنَّهُمْ بمفَازةٍ منَ الْعذاب ﴾ إلا أن يعفو الله عنهم فـهم تحت المشيئة الإلـهيـة المجهولة للخلق وهذا شأن غالب العـباد والزهاد الجهلاء أصحاب السـجادة والمحراب ، والذى يعبد الله بنفسه ما عبده ولا أعطى الحقيقة حقها .

قال سيدى أحمد الرفاعى :

دع المسـاجد للعبـاد تعـمرها ... وانهض بعزم لمن سـواك من طين

أنا حُـمـيد المعنى ما حظيت بهـا ... حـتى دقـقـت عظـامى بالهـواوين

لا تفهم من كلام الإمام الرفـاعى أنه يدعوك إلى ترك المساجد ، وإنما هو يشير إلى عدم الفرح ، ونسبة العبـادة إلى العبد ؛ فالذين يعبدون بأنفسهم لهم عذاب أليم (بالحجاب)، وهو عذاب معنوى لا حسى ،وهو نار الله الموقدة ، والعذاب وإن تنوعت مظاهره فأصله الحجـاب وهو أشد العذاب ، وعلى العبد أن يستحـضر عند الشروع فى العبادة أن الفاعل هو الله ، والعـابد محل ظهور الفعل ، والطائفة التى كشف الله تعالى عنها الحجاب ، وسقاها لذيذ الشراب، لا يغرها نسبة الفعل إليها من الله تعالى ، بعد علمها بحقيقة الأمر . فقد فنوا عن رؤية الأفعال بشهـود مجريها فعبدوا الله على الوجه المرضى ؛ فـهم العبيد العبّاد على الحقيقة ، فالآية فـيها ما ذكرناه من الإشارات ، وكل ما أعطى الله تعالى من أعطى من عبـيده من الفهم فى كتابه تعالى فـهو مراده له هداه به أو

أصله ، من أدنى زنديق إلى أعلى صدّيق [1].

★ تعليق وإيضاح :

هذا الذى تحدث عنه الأمير ، هو تجـلى الأفعال ، وهو أول تجلى يحدث للمريد وهو من البدايات ، وإذا لم يحظ المريد بهذا التـجلى فعبادته معلولة ، لأنه يرى نفسه فى العبادة .

وقد قال الإمام القشيرى فى وصيته للمريد فى رسالته القشيرية : المقصود أن تعرف ربك لا تحصل جاه نفسك ، ومدار الطريق على محو النفس ورؤية أن كل ما بها من صفات محـمودة وطاعات ، عارية من الله ، وهذا الأمر ذوقى ولا يحـصله العـابد إلا بسلوك طريـق القوم ، والـنفس أصل كل وداء وبلاء وصاحب النفس لا ينجو من الشرك الخفى .

وأشـار الشـيخ عبـد الغنى النابلسى فى شـرحـه على رسالة الشـيخ أرسـلان الدمشقى إلى أنه لا فرق بين الشرك الجلى والخـفى ، فالأول ظاهر لكل الناس والثانى ظاهر أيضاً ، لكن لأهل الله العارفين ، ولا تبادر ـ يا أخى ـ وتظن أن أهل الله يقللون من شـأن الطاعـات حاشـاهم أن يقولـوا بذلك لكنهم يريدون الإخلاص فـيها ومشـاهدة منشئهـا وباريها ، وما دمت ترى نفـسك فأنت فى حجاب ، وهو العذاب بعينه .

قال السرى السقطى : اللهم إن عذبتنى فلا تعذبنى بذل الحجاب ، ونسب هذا القول لغيره من العارفين ، فسارع ـ يا أخى ـ فى إزالة الحجاب بالاعتماد على الله ، وتبـرأ من نفـسك . . ولمثل هذا فليـعـمل العـاملون ، وليـتنافس المتنافسون ، وليتسابق المتسابقون ؛ ففى ذلك الفوز المبين والنجاح **العظيم** .



---

(1) الموقف ٣٣٤ ج ٣ / ١٢ .

★ وقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [الشورى : ٢٠]

★ **وقوله تعالى:** ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ :

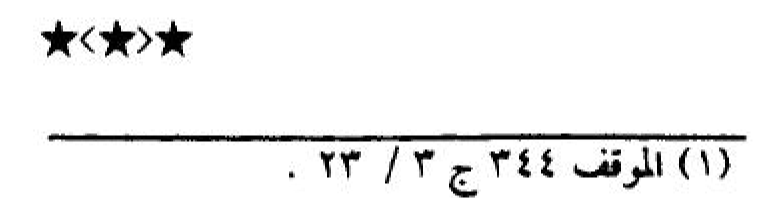
[الإسراء : ١٨]

يقول الأمير :

ورد فى بعض الأحاديث الربانية أنه تعالى يقول : « يا دنيا من خدمك فاتعبيه ، ومن خدمنى فاتبعيه » وليس المراد أمر الدنيا بالإعراض وعدم اقبالها على من خدمها ، بل المراد فاتعبيه أى اقبلى عليه بوجهك وعانقيه وانبسطى له وتوسعى حتى يتعب ويتعذب بسبب اقبالك عليه ، إذ انبساط الدنيا واقبالها على من خدمها ورغب فيها عقوبة من الله لخادم الدنيا ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

وقوله : « من خدمنى فاتبعيه » : هو أمر من الله تعالى للدنيا بأن تكون خلف من خدم الله تعالى فلا تواجهه ، ولا تقبل عليه ولاتنبسط له لئلا تشغله عن خدمته تعالى .

وقد ورد فى بعض الأحاديث الربانية : « يا دنيا تضيقى وتمررى على أوليائى حتى يحنّوا إلى لقائى » ، فإن الدنيا شاغلة عن خدمة الله تعالى إلا من رحم ربك ،وقليل ما هم ، كسليمان عليه السلام ، والكمّل من الأولياء ، الذين كانت الدنيا فى أيديهم لا فى قلوبهم ، وفى ظاهرهم لا فى باطنهم ، فتصرفوا فيها تصرف المستخلف المالك ، ومع هذا فقد ورد أن عبد الرحمن بن عوف ﷺ سيدخل الجنة حبواً ، وسليمان ـ عليه السلام ـ يدخل الجنة بعد الأنبياء بأربعين سنة ، ولا نشك أنهم أخذو الدنيا بحق ، واخرجوها بحق (١) .



(١) الموقف ٣٤٤ ج ٣ / ٢٣ .

★ **تعليق وإيضاح :**

ذم الدنيا يطول فيه الحديث ، وهو معلوم لكل عاقل . وما انقطع السالك إلا من حب الدنيا ومظاهرها من مال وجاه وغير ذلك ، والانشغال بالدنيا من أجل الدنيا سم قاتل ، أما الانشغال بها من أجل الله فهى مطية المؤمن للدار الآخرة ، فلا ضرر فى ذلك . . وما ورد من حبو سيدنا عبد الرحمن بن عوف فهو لتحذير الخلق من الدنيا . . وقال سيدنا أحمد التيجانى : حبو عبد الرحمن بن عوف ﷺ أسرع من طيران أكبر الأولياء ، وخطاب الرسول لصحابته وأهل بيته خاص به ﷺ فقوله : « يا فاطمة بنت محمد . . » لا يسوغ لنا أن نذكرها ﷺ باسمها مجرداً ، وهذا من الأدب .

وانظر إلى الأمير وكلامه معاً ، هل ترك الدنيا ، كلنا نعرف حاله فيها ، عاشها معززاً مكرمًا مجاهداً عالماً معروفاً فى الشرق والغرب ، ونشر الله له من الجاه والصيت والاحترام والتقدير ما لم ينله أحد فى عصره ، ولم يشغله كل هذا عن الله ، فليس ذم الدنيا دعوة إلى التقوقع والتكاسل والتبلد والانعزال ، وتركها لأعدائنا يتمكنون منها ويسيطرون علينا بها كما نراه الآن ، ولكن ذمها لنزهد فيها فتكون فى أيدينا لا فى قلوبنا .

★ **قوله تعالى** : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ . . . ﴾ الآية [الأعراف : ١٤٣] .

يقول الأمير :

قد أكثر الناس الكلام فى هذه الآية من علماء الرسوم والعارفين أهل الوحدة والشهود ، والذى ورد به وارد الحق تعالى عليّ أن موسى ـ عليه السلام ـ رأى علو مقامه عند ربه بسماع كلامه وغير ذلك ؛ فحمله ذلك على طلب رؤية تضمحل فيها الحُجب إلا حجاباً لا يتصور رؤية الحق بدونه ، مع بقائه ـ عليه السلام ـ عند حصول هذه الرؤية على حالته وصحته وبنيته ، ومن المحال رؤية الحق تعالى بلا حجاب لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فلما سأل من ربه ما سأل أجابه الحق تعالى بأنه لا يقدر على الرؤية حسب سؤاله ،

فـقول الحق تعـالى : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ بمعنى لن تطيق رؤيتى على الحـالة التى سـألتـها من قلـة الحجب وبقـائك على حـالتك ، فـالمنفى هو الرؤية المـقيـدة المخصوصة بما ذكر ، وأما الرؤية فـهى ثابتة ، حاصلة له عليه السلام ، ولولا حصول الرؤية ما خر صـعقاً ؛ فسؤاله مقبول من جهـة حصول الرؤية ، وغير مقبول من جهة حصول الضعف ، وما أمر الحق موسى ـ عليه السلام ـ بالنظر إلى الجبل إلا تسلية واعلاماً بالمعاينة ، أن عدم الثبات واضمحلال التركيب عند هذا التجلى المخصـوص ليس خـاصـاً ؛ بـل هو له ولمن هو أشـد وأقـوى بنية (الجبل) ومن زعـم أن موسى ـ عليه الـسلام ـ لم ير الحق تعـالى وأن الجبل رآه، فقـد نصّب الآية على رؤية الجـبل ، من زعم هذا فقـد جعل الجـبل أكرم على الله من موسـى ، وكـفى بهذا جهلاً ، وتوبة موسى ـ عـليه السلام ـ إنما كانت من سؤاله ما لـم يؤذن له فيه ولا يقوى عليه،ومقامـه السامى يقضى أن هذا سوء أدب مع الحق تعالى ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين (١) .

★ قال الله تعالى مخاطباً لرسوله محمد ﷺ :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦]

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢]

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ ﴾ : [الروم : ٥٣]

يقول الأمير :

اعلم أنه لا تناقض بين هاتين الآيتين ، وإنما يظهـر التناقض بينهمـا ببادى الرأى عند من لا يعرف مرتبة محمد ﷺ ، ومن عرف مرتبته استراح ، وما اعتاص عليه مثل هذه .

فالرسـول ﷺ متـخلق بأخلاق الحق تعـالى ، والحق لا يرضى لعـباده الكفر ، والرسول ﷺ حريص على هداية الخلق ولا يحب لهم الكفر ، وإن كان الولى الذى هو قطرة من بحر الرسول ﷺ تتحد إرادته بإرادة الله تعالى

---

(١) الموقف (٦٨) ج ١ / ٤١ .

فكيف به ﷺ ، وهو البرزخ بين الحق والخلق ؛ فهو المنفذ لمراد الله في عباده من ضلال وهدى ؛ فهو مظهر العلم القديم ؟!.

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ إثبات لما عساه أن يتوهم من وقوع شئ بغير إرادته تعالى ، وقد قال ذلك بعض الفرق الضالة .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ وهو صراط النجاة إثبات لنيابة الرسول ﷺ لله تعالى فى الهداية وغيرها ، فالهداية تحصل بواسطته ﷺ ، إما بالعقل أو بواسطة الرسل عليهم السلام فإنه ﷺ النور الأصلى الذى منه كل نور ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ من حيث أنك غير وسى كما هو رأى المحجوبين ، وهو نظر إبليس حيث قال للرسول ﷺ : اسمك الهادى وليس لك من الهداية شئ ، واسمه الأبعد المضل وليس له من الضلالة شئ وذلك لجهل عدو الله بحقيقة محمد ﷺ ، كما جهل حقيقة أبيه آدم .

فأثبت الحق تعالى للرسول ﷺ ما نفاه عنه ، فالآيتان مرتبتان فى المعنى كما قال تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ؛ فأثبت الرمى لمحمد ﷺ ونفاه ، ولا يفهم عنا إلا أهل طريقتنا اذ لا يفهم عنك إلا من أشرق فيه ما أشرق فيك وتقول العامة : لا يهم كلام الأخرس إلا أمه [1] .

* • * • *

---

(١) الموقف (١٠٢) ج ١ / ٦٦ .

الباب الخامس

شرح الأمير لبعض الأحاديث النبوية

لم نذكر كل ما قاله الأمير فى شرحه ، وإنما أوردنا كلامه مختصرا وملخصاً ومبسطا ، وذلك لبعد مرماه ولجوئه للإشارة والتلميح وذكره بعض العلوم اللدنية التى لا تتحملها أغلب العقول والقلوب المحجوبة ، وتبسيطنا وتلخيصنا - إن شاء الله - لم يخل بالنص المطول الذى ذكره الأمير ، واعلم أن كلام الأمير يشبه إلى حد كبير كلام الشيخ الأكبر ابن عربى ، ويحتاج إلى ذوق فى فهمه ، وعلى كل الأحوال سوف تجد فيما نذكره فوائد كثيرة ، للخاص والعام والمحجوب والمفتوح عليه ، والمريد المبتدئ .

١- ما يروى: « من عرف نفسه عرف ربه » (١):

يقول الأمير :

ورد هذا الحديث فى خبر متواتر متداول بين القوم ، وإن ضعفه الحفاظ من علماء الرسوم **« من عرف نفسه عرف ربه »** .

يعنى **« من عرف نفسه »** المقيدة **« فقد عرف ربه »** المطلق ، والنفس لا تعرف من جميع الوجوه ؛ بل هى مجهولة فكذلك الرب لا يُعرف أبداً ، إذ المعلق على الممنوع ممنوع ، ومعرفة الرب مشروطة بتقدم معرفة النفس ، والتقدم رتبى ، لا زمانى إذ ليس فى هذا المقام زمان ، والناس متفاوتون فى معرفة نفوسهم كما هم متفاوتون فى معرفة ربهم .

---

(١) ليس بحديث ، ولكنه من كلام يحى بن معاذ الرازى كما ذكره السيوطى فى رسالته (القول الأشبه فى حديث : من عرف نفسه تعد عرف ربه) ، وهى إحدى رسائل كتابه القيم (الحاوى فى الفتاوى) .

٢ ـ قال الرسول ﷺ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تعدل ثلث القرآن » [١] .

يقول الأمير :

ورد فى الخبر أن « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » ، وذلك أن القرآن مأخوذ من القرء وهو الجمع ، والقرآن جامع لكل شئ . . وكل شئ لا يخرج عن كونه متعلقاً بالحق أو بالخلق ، أو بالبرزخ الجامع بين الحق والخلق ، وهو حقيقة الحقائق ، وانحصرت المعلومات التى دل عليها القرآن فى هذه الثلاث ، فقل هو الله أحد تماثل ثلث القرآن من حيث الإجمال لا من حيث التفصيل ؛ فإن ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ إشارة إلى الذات المغيب .

و ﴿ اللَّهُ ﴾ اسم علم على الذات ، وهى الألوهية الجامعة لجميع المراتب والقرآن تفصيل لها [٢] .

ويؤيد ما قاله الأمير كلام الشيخ محمد خليل الخطيب الشاذلى قال : القرآن أحكام وتوحيد وتاريخ و« قل هو الله أحد » فيها التوحيد ومتعلقة بذات الله تعالى ، لذلك تعدل ثلث القرآن [٣] .

٣ ـ قال الرسول ﷺ : « إذا زلزلت تعدل ربع القرآن » .

يقول الأمير :

ورد فى الخبر : « **إذا زلزلزت تعدل ربع القرآن** » [٤] .

وذلك بالنسبة إلى الإنسان فإن الإنسان له أربعة مواطن : موطن الدنيا ، وموطن البرزخ ، وموطن الحشر الذى مقدراه خمسين ألف سنة ، وموطن الآخرة ولا موطن بعده ، والقرآن جامع لأحكام هذه المواطن كلها على سبيل التفصيل ، و« إذا زلزلزت » متضمنة لموطن من هذه المواطن الأربعة ، وهو ما

---

(١) رواه الشيخان عن أبى الدرداء ﷺ .

(٢) الموقف ٢٦٣ ج ٢ / ٩٤ .

(٣) سيرة الإمام محمد خليل الخطيب ، محمود محمد الخطيب ، ص ٧٥ .

(٤) رواه الترمذى ، عن ابن عباس ﷺ مرفوعا .

بين البعث والآخرة واستقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، لهذا تعدل ربع القرآن إجمالا [(١)].

٤ ـ روى مسلم عن رافع بن خديج قال : قدم رسول الله المدينة ، وهم يؤبرون النحل فقال : « **ما تصنعون ؟! : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا** » ، فتركوا فنفضت الثمرة ؛ فقال ﷺ : « **إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشى من دينكم فخذوا ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر** ».

يقول الأمير :

ورد الحديث بمعاني أخرى ، وقوله ﷺ : « **أنتم أعلم بأمور دنياكم** ». من فهم من الحديث أنه ﷺ كان جاهلا بأن النخل يصلحه التأبير ، فقد أبعد ولو كان من الأكابر ؛ فمراد الرسول ﷺ أمر آخر ، والأنبياء عليهم السلام لا يجهلون أمور الدنيا ، والرسول ﷺ نشأ في أرض العرب ، وهي أرض النخيل فمحال أن يجهل هذا ، وعلوم اللوح والقلم ، بعض علومه ﷺ ، وأمور الدنيا كلها قد تضمنها اللوح والقلم ، وقد أخبرت البارحة بهذا في الواقعة ؛ لكنه ﷺ علم ما كانت عليه العرب من الاعتماد على الأسباب ، وكانوا حديثى عهد بجاهلية وعبادة الأصنام ، فأراد أن يعرفهم أن الأسباب لا تأثير لها ، والفاعل هو الله ، وُجدت الأسباب أو عدمت ، ولكنهم ما فهموا مراده !! .

وقد ورد شرح لهذا الحديث بغير هذا المعنى الذى ذكره الأمير للشيخ الأكبر وللشيخ الدباغ في الإبريز .

٥ ـ ورد في سنن *الترمذي* قوله ﷺ « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ».

يقول الأمير :

اعلم أنه ليس المراد من الحديث ظاهره ، وإنما هو من باب الأمر بالشئ نهى عن ضده فلا تدعو بشيء لا تحبون الاجابة فيه ، كأن يدعو الانسان على نفسه وولده وهو لا يريد الاجابة ، بل لو أجابه الله في ذلك لساءه وغمّه ، وهذا يصدر من سئ الأخلاق من الناس.

---

(١) الموقف (٢٦٤) ، جـ ٢ / ٩٤ .

فادعوا الله لخوف مكروه ونيل مرغوب ، ومع هذا فلا بد من التفويض فإن الداعي جاهل بمصالحه ،فربما سأل ما يظنه خيراً وهو شر فى حقه والعكس وكل داع غير مفوض فهو مستدرج . .

وقال سادتنا : « **الفقير ليس له إلى الله حاجة** » يريدون حاجة معينة ، وإنما يسألون جلب الخير من حيث يعلمه الله ، ودفع الشر من حيث يعلمه الله ، فلا يصح حمل الحديث على حسن الظن بالله تعالى ، فالعبد جاهل بمصالحه فلا يناسبه إلا التفويض لله العالم ببواطن الأمور ، ولا تفويض مع تيقن الإجابة ، ومشروعية الدعاء ، وكونه مخ العبادة إنما ذلك لإظهار الذلة والعبودية ، لا لقضاء الحوائج . . هيهات هيهات . . كيف يكون دعاؤك اللاحق سبباً فى القضاء السابق !!، جل حكم الأزل أن يضاف إلى علل [1] .

★ إيضاح :

نلاحظ أن الأمير فى كلامه يشحذ همم العباد ، ويدفعهم نحو طلب العبودية ، والمقامات العالية ، ويحثهم على ترك ظلمات الكون وطلب الأغيار ولا يناقض كلامه المعنى الوارد فى « **أن الدعاء يرد البلاء** » . . ولكل عبد من عباد الله درجة ومقام ، والاستعدادات متفاوتة ، وكل واحد أدرى بحاله فمن نزل من مقام التفويض والعبودية ، واشتغل بطلب رغباته ، فلا نكلفه أن يشتغل بأحوال ومقامات أهل الله العارفين ، لكن عليه أن يجتهد حتى يصل لذلك .

٦ ـ روى البخارى فى صحيحه أن الرسول ﷺ قال : « أريت النار فرأيت أكثر أهلها النساء » .

وروى البخارى أيضاً أن الرسول ﷺ قال : « لكل واحد من أهل الجنة زوجتان من نساء الدنيا » .

يقول الأمير :

استشكل شراح الحديث هذين الحديثين ، فظاهر الحديث الأول يقتضى أن النساء فى الجنة أقل من الرجال .

---

(١) الموقف (٣٠٣) ، ج ٢ / ١٦٤ .

أقول : لا إشكال فإنه ﷺ أرى النار يدخلها عصاة هذه الأمة فرأى أكثر أهلها النساء ، وليس المراد أنه أرى النار التى يدخلها كل من يدخل النار فإنه لما سئل عن السبب ؟ قال ﷺ : يكفرن الإحسان ، ولم يقل يكفرن بالله ، فنفى عنهن الكفر بالله الذى يستوجب الخلود فى النار ، ومن لم يكفر بالله لا بد أن تدركه الشفاعة ، ويخرج إلى الجنة [ولما كانت النساء أكثر أهل النار قبل الشفاعة صرن أكثر أهل الجنة بعد الشفاعة] فتكون النساء فى الجنة أكثر من الرجال ، وأقل ما يكون للرجل من أهل الجنة زوجتان من نساء الدنيا وزوجتان من الحور العين بنص الرواية الأخرى فى البخارى .

٧ـ قال الرسول ﷺ : « من تواضع لغنيّ لأجل غناه ذهب ثلثا دينه » .

قال الإمام جلال الدين السيوطى : خرّجه البيهقى فى الشُعب عن ابن مسعود وأنس بلفظ : **« من أصبح حزينا على الدنيا أصبح ساخطا على ربه ، ومن أصبح يشكو مصيبة فإنما يشكو ربه ، ومن دخل على غنى فتضعضع له ذهب ثلثا دينه »** .

يقول الأمير :

اعلم أن هذا الحديث ورد بلفظ الخبر ، ومعناه النهى عن التواضع للغنى لغناه ، والمراد بالنهى الفقير ، فقد أخرج الديلمى من حديث أبى ذر : **« لعن الله فقيراً تواضع لغنى من أجل ماله ، ومن فعل ذلك منهم فقد ذهب ثلثا دينه »** .

وقد أورده ابن الجوزى فى الموضوعات فلم يصب . .

والدين هنا بمعنى الجزاء كما قال تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أى الجزاء فالله أعد للفقير فى الدار الآخرة جزاء مخصوصاً فى مقابلة فقره فى الدنيا ، فإذا عظّم الغنى لغناه نقصه ذلك أكثر جزائه ، وليس المراد هنا أصول الشرائع وفروعها ؛ فإن هذا لا يتصور فيه ذهاب البعض وبقاء البعض ، والتعبير بالثلثين كناية عن ذهاب أكثر جزائه ، فإن قلت لمَ لمْ يُعبر الرسول ﷺ بالأكثر بدل الثلثين ، قلنا : لقد أخبر الرسول ﷺ بما أخبر الله تعالى ، وما كل أفعال الله تُعلم حكمته ، وتفسير الثلثين بالأكثر أقرب إلى السلامة من

الخطأ ، وأبعد من التعسف فى كلام النبوة [1].

٨ـ قال ﷺ :« من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » :

رواه الطبرانى عن أبى موسى ، وحسنه السيوطى .

يقول الأمير :

هذه صفة حصر ،حصر الرسول ﷺ الإيمان بالموصوف بهذه الصفة ، لأن غيره إما جاحد مكذب ، وإما عارف مشاهد صار الغيب عنده شهادة ، فلا يطلق عليه اسم مؤمن إلا بالمجاز ، فالمؤمن مصدق بالغيب من إخبار الشارع ، بنسبة الأفعال إلى من صدرت عنه من العباد . . أما العارف المكاشف فإنه لا تسره حسنته ولا تسوءه معصيته ، ولو قدر عليه قتل ألف نبى ما تغير ولا حزن ، والدية على القاتل ، ولو بشر بالقطبانية الكبرى ما سرّه ذلك فإنه عارف بأنه ليس له من الأمر شئ ؛ فالعارف لا يرى حسنة ولا سيئة إلا بالنسبة الشرعية ؛ فقد زاد على مطلق المؤمن ، وصار ما كان غيبا شهادة له [2] .

★ زيادة إيضاح :

هذا الذى أشار إليه الأمير هو مقام العارف المكاشف ، وعلى المريد المحجوب أن لا يعمل بهذا الكلام ، وقد قال الأمير : لا يفهم عنك إلا من أشرق فيه ما أشرق فيك ، والعارف قطع جميع عقبات النفس والمريد مطموس البصيرة بأوحال النفس ، فله أن تسره حسنته وتسوءه سيئته ،كى لا يركن إلى البطالة ولا تفهم من كلام الأمير معانى الإباحة والزندقة ، واقرأ حضه الكثير على التمسك بالكتاب والسنة ، وما قاله الأمير مقام لا يُشرح ولا تحمله العبارة ، وقد ذكره لعارف مثله أشرف على هذا المقام ، وذاقه ، ولم يذكره لى ولك ، فنحن من أهل الحجاب .

---

(١) الموقف ٣١٨ ج ٢ / ١٨٣ .

(٢) الموقف ٧٩ ، ج ١ / ٤٦ .

وتكلم الإمام الشعرانى على هذا المقام فقال :

من أخلاق القوم طرح نفوسهم بين يدى الله إذا أطُلعوا من طريق كشفهم على وقوعهم فى شئ من المعاصى فى المستقبل فيأخذون فى الدعاء والسجود وطلب الستر ، ويسألون الله إزالة هذا الأمر من شهودهم .. ومن أتى المخالفات بحكم التقدير الإلهى من غير ميل ولا شهوة ، ربما يكون أخف عقوبة ممن أتاها بالميل واالشهوة (١) .

٩ ـ ورد فى الصحيح قول الرسول ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » .

يقول الأمير :

يريد الرسول ﷺ **بطريق الاشارة** : أنه لا يصح لمن فتح الله عين بصيرته وأراه سريان الأحدية وقيام القيومية على كل ذرة من ذرات الوجود أن لا يهجر شيئاً من المخلوقات ويزدريه ، كان ما كان ذلك المخلوق ، حيوان أو غيره ، فمن يعظّم مخلوقات الله ، فتعظيمه من تقوى القلوب ، وهم أهل الشهود ، لكن مع هذا الشهود وعدم الهجرة لشئ لا بد من القصاص وإجراء أحكام الشرع وتغيير المنكر ، وتحسين ما حسنه الشرع ، وتقبيح ما قبّحه .. وهذا أصعب شئ يكابده العارفون (٢) .

١٠ ـ ورد فى الخبر قول الرسول ﷺ :

« من لم يشكر الناس لم يشكر الله » راوه أحمد والترمذى .

يقول الأمير :

يريد الرسول ﷺ أن الذى لا يشكر الناس من حيث هم غير وسوى ، لم يشكر الله حيث أنه ما عرفه ، وكيف يشكره من لم يعرفه .

والناس وجميع المخلوقات والأسباب مظاهر الحق تعالى وتعيناته ، فمن عرف الله والناس هذه المعرفة كان شكره للناس شكر لله ، وشكره لله شكر للناس .

---

(١) تنبيه المغترين عبد الوهاب الشعرانى ص ١٣٦ .
(٢) الموقف ٨٠ ، ج ١ / ٤٦ .

قال الشيخ الأكبر - عندما تكلم على نسبة الفعل إلى الله وإلى الوسائط والأسباب : من الناس من قال عندها ، ومنهم من قال بها ، ونحن وأمثالنا (يعنى من المحققين الذين هم أعلى مرتبة فى المعرفة من العارفين) نقول : عندها وبها ، فكل شئ له وجه إلى الحق ، ووجه إلى السبب ، وقد نفى الحق التأثير عنه (أى عن السبب) من هذا الوجه بقوله ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ فإذا رأيت العارف يشكر مخلوقاً ويعظمه فمن هذه الحيثية فلا تظن أنه يرى الناس كما تراهم أنت واحذر الغلط والسلام [(١)].

١١ - ورد فى الصحاح ولا يبعد أن يكون من الأحاديث المتواترة قوله ﷺ :
« إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر منه » .

يقول الأمير :

تكلم الناس على هذا الحديث قديما وحديثا ، وذكر الإمام السيوطى رضي الله عنه منها نحو الأربعين قولاً .

وأكثر الناس عليه كلاماً على طريق أهل العرفان العارف بالله عبد العزيز الدباغ الفاسى فإنه أبدع وأتى بما لم يسبقه إليه غيره . وكل ما قيل فى معنى الحديث فصواب وأصوب ، فإن الكلام من عنده تعالى ومن تجلياته ، وكلام الحق تعالى ، وكلام الرسول ﷺ بحر زاخر ما له ساحل .

والذى ألقاه الحق علىّ من معانى الحديث العظيم الشأن ومن إشاراته المعجوز عن استيفائها بالبيان ، أن المراد بالأحرف : الأحرف الحقيقية ، وهى الأمهات السبعة والأصول الكلية : العلم والإرادة والقدرة والكلام والسمع والبصر والحياة .

واعلم أن جميع العلوم المتداولة مأخوذة من القرآن قال تعالى ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ فكل ما يطلق عليه اسم شئ فهو فى القرآن . . إما تصريحاً وإما إشارة ، والقرآن من القرء وهو الجمع ، والقرآن ليس إلا ظاهر علم الحق ولا ريب .

---

(١) الموقف (٨٢) ، ج ١ / ٤٦ .

وتختلف وجوه دلالات القرآن على متعلقات الأحرف باختلاف وجوه قراءاته من تقديم وتأخير ، ورفع ونصب ، وخفض وسكون ، والحق يفتح على كل واحد بما يستحق استعداده إما هدى وإما ضلالة ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ﴾ والإحاطة بجميع ما أحاط به القرآن محال، فلهذا قال ﷺ : « فاقرءوا ما تيسر منه » أي من مدلولاته والعلوم التى تضمنها ، لأن القران كله يُسر ، فليس منه يسير وغير يسير ، ولا تيسر لأحد شئ إلا ما هو مستعد له ، وقوله ﷺ : « ولا تختلفوا » أى لا تجعلوا ما يفتح الله به على بعضكم فى الفهم فيه خلافا قادحا فى القرآن [1].

★ شرح الإمام الدباغ « مختصراً »:

شرح هذا الحديث القطب الغوث الأمى (عبد العزيز الدباغ) على وجه آخر ، مما يدل على تنوع مشارب أهل الله وورداتهم ، ومع كثرة قراءة الأمير واعجابه بكتاب (الإبريز) ، إلا أنه شرح هذا الحديث بمعنى يخالف ما ذكره الإمام الدباغ .

ومن هنا يسقط قول بعض المؤلفين بثقافة الأمير وتأثره بمن سبقوه ؛ فلكل واحد من العارفين فتح إلهى خاص به ، وقد شرح الإمام الدباغ هذا الحديث فى ٤٠ صفحة من القطع الكبير ،وأتى فيه بالعجب العجاب ، نذكر منه ما تيسر:

قال ﷺ : إن الأحرف هى : حرف النبوة ، وحرف العلم، وحرف القبض ، وحرف البسط ، وحرف الرسالة ، وحرف الأدمية ، وحرف الروح والقرآن ، كما هو مكتوب صادر من الرسول ﷺ ،وهو الذى أمر الكتاب من الصحابة ﷺ أن يكتبوه على الهيئة المذكورة فما زادوا وما نقصوا .

والحروف التى ترسم ولا تقرأ كالواو فى ﴿ الحيواة ﴾ و﴿ مشكواة ﴾ والياء فى ﴿ بأييد ﴾ كلها لسر من أسرار وأنوار هذه الحروف،فرسم القرآن معجز وله أسرار ، فكيف تتوصل إلى سر زيادة الألف فى ﴿ سعوا ﴾ من قوله تعالى فى

(١) الموقف (٨٥) ، ج ١ / ٤٨ .

سورة الحج : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ [الحج : ٥١] .

وعدم زيادتها في سورة سبأ من قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [سبأ :٥] .

« ولاحظ عدم وجود الألف فى سعو » .

واثبات الألف فى ﴿ سموات ﴾ سورة فصلت وحذفها في غيرها ، وكذلك إطلاق بعض الياءات وربطها بنحو رحمة ونعمة وقرة ، فإنها فى مواضع تكتب بالتاء ، وفى مواضع تكتب بالهاء فرسم الكتابة توقيفى لا اصطلاحى .

ولا يجوز أن يزاد فى القرآن حرف ولا أن ينقص منه حرف فالقرآن بحمد الله محفوظ ألفاظاً ورسماً ، أما الحديث المنقول عن عثمان رضي الله عنه : « إن فى القرآن لحناً ستقيمه العرب بألسنتها » ؛ ففى إسناده اضطراب ،وهذا الحديث لم يرد عن عثمان رضي الله عنه لما فيه من الطعن عليه ، فكيف يترك عثمان رضي الله عنه فى القرآن لحنا وخطأ يتولى من يأتى بعده تغييره ، هذا مما لا يجوز لقائل أن يقوله .

إن هذا الكلام أسرار إلهية ، وأغراض نبوية خفيت على الناس لأنها من الأسرار الباطنة التى لا تدرك إلا بالفتح الربانى ، وهى بمنزلة الألفاظ والحروف فى أوائل السور ، فلها أسرار عظيمة ومعانى كثيرة [١].

••*

(١) الابريز : أحمد بن مبارك ، من ص ٣٩ حتى ص ٨٠ .

الباب السادس

شرح الأمير لبعض كلمات الصوفية

يقول الأمير فى افتتاحية كتاب (المواقف) ، مشيراً إلى علوم أهل الله واصطلاحاتهم ، وأشعارهم وحكمهم ، ومواجيدهم :

هذه نفثات روحية ، والقاءات سبوحية بعلوم وهبية وأسرار من وراء طور العقول وظواهر النقول ، خارجة عن أنواع الاكتساب والنظر فى كتاب ، قيدتها لاخواننا الذين يؤمنون بآياتنا ، إذا لم يصلوا إلى اقتطاف ثمارها ، تركوها فى زوايا أساكنها إلى أن يبلغوا أشدهم ، ويستخرجوا كنزهم ، وما قيدتها لمن يقول هذا إفك قديم وأساطير الأولين من علماء الرسوم القانعين من العلم بالاسم ، فإننا نتركهم وما قسم الله لهم ، فإذا أظهروا لنا ملامًا وخصاماً تلونا : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ ولا نجادلهم ؛ بل نرحمهم ، ونستغفر لهم ، ونقيم لهم العذر ، فالأمر عظيم ، والخطب جسيم ، والعقل عقال ، فلا عاصم إلا من رحم ربى ، وطريقة توحيدنا ما هى طريقة المتكلم ، ولا الحكيم المتعلم ، ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة وسنة الرسل المرسلة .

ويسترسل الأمير فى كلامه ، ويترقى فى معانى ألفاظه ، ويتحدث عن العروج الروحى ونهاياته ، وفناء الاسم والرسم والصباح والمساء ، وما شاكل ذلك من كلمات الصوفية التى سوف نذكر شرح الأمير لبعضها فى هذا الباب وقصدنا جمع عامة المسلمين والمريدين السالكين ، على الاقتداء بالأمير ، فلا نفجأهم بما لا طاقة لهم به ، ونكلمهم على قدر عقولهم ، حتى يفتح الله علينا وعليهم ، ويذوقوا بأنفسهم أسرار هذا الكلام فيتركون الخصام والملام ، وينخرطون فى سلك أهل المحبة والوئام والتفويض والاستسلام .



★ **قول إمام الطائفة الجنيد : « لون الماء لون إنائه » .**

يقول الأمير :

سئل سيد الطائفتين ﷺ (يعنى الإمام الجنيد) عن العارف والمعرفة ؟ فقال : **لون الماء لون إنائه** . . وسكت .

يريد : أن الماء لا لون له ، وإنما يظهر بتلون الإناء . . وكذلك الحق تعالى لا صورة له ، وإنما يظهر بصورة العارف له .

فالعارف الكامل هو الذى تظهر فيه صورة الحق تعالى على الكمال ، لأنه مرآة الحق ، يرى الحق فيه أسماءه وأوصافه ؛ فالعارف صورة الحق ، أعنى صورة العارف الباطنة ، فظاهر العارف خلق وباطنه حق ، فكل من رأيناه تظهر منه أخلاق الحق وأسماؤه عرفنا أنه عارف بالله ، وأن المعرفة وصفه ، فالعارف بمثابة الإناء ، والحق تعالى بمثابة الماء ، والعارفون متفاوتون فى هذا ، والظاهر بالصفات والأسماء على الكمال هو الإنسان الكامل ، والعارف لا يعرف أنه عارف إلا إذا ظهر بالصفات والأسماء على الكمال ، والمعرفة تمنعه أن يظهر بذلك فى دار الدنيا فإن أدب الموطن يقتضى كتم صفات الربوبية ؛ فكتمه أوصاف الربوبية هو الكمال [1] .

★ **قول أبى يزيد البسطامى حين سمع قارئا يتلو القرآن من قوله تعالى**
﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ :

قال : يا عجبًا كيف يحشر إليه جليسه ؟ !! .

يقول الأمير :

ورد فى الصحيح عنه تعالى (يعنى فى الحديث القدسى) أنه قال :

« أنا جليس من ذكرنى ... » الحديث ، فلفظ (أنا) و(نى) يقتضيان أن المراد المجالسة بالذات ، ومجالسة الحق الذاتية إنما هى لمن ذكره بأسماء الذات

(١) الموقف (١٧) ، ج ١ / ١٨ .

كالله والهو والأحد ، وأسماء الضمائر . . وأما إذا ذكره الذاكر بأسماء الصفات والأفعال ؛ فالحق جليسه من حيث معنى الاسم خاصة لا بالذات وكذلك إذا ذكره بالاسم (الله) وكان قصده معنى من المعانى كما إذا قال : يا الله ارزقنى ، أو يا الله عافنى ، ومن هذا المعنى الذى أسلفناه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾ .

فحيث لم يكن المتقى جليساً لاسم من أسماء الجلال كالمنتقم والجبار وشديد العقاب ونحوها ، ومجالسة أسماء الجلال تمنع من مجالسة أسماء الجمال كالرحمن ونحوه ، وهى التى حملته على التقوى ، جزاه الله تعالى بحشره إلى الرحمن وفداً حتى يرحمه الرحمن ، ويكرمه وينعمه ، وقد غفل عن هذا المعنى العارف الكبير أبو يزيد البسطامى والكمال لله .

وقال إمام العارفين ابن عربى : الذى يحشر إلى الرحمن مقطوع بنجاته بخلاف الذى يحشر إلى الله كما فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فإنه بين خوف ورجاء من حيث أن الاسم (الله) جامع لمعانى أسماء الجلال والجمال [1] .

★ قول ابن عطاء الله السكندري :

« لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين »

يقول الأمير :

سير السائرين هو سير معنوى ، فيه تردد وصعود وهبوط ، وصفات النفس معبر عنها بالميادين ، أى المجالات المتسعة ، والسير فيها بتبديل صفاتها ومحو آثارها وعاداتها ، والنفس حقيقة واحدة ولكن تعددت ، بتعدد صفاتها وتباين مقتضياتها ، فيقال أمّارة ولوّامة وملهمة ومطمئنة .

« ما تحقق سير السائرين » أى ما ثبت سير للسائرين لأنه ليس هناك شئ

---

(١) الموقف (٢٢) ، ج ١ / ٢٠ .

محسوس يسير فيه السالك حتى يقطعه إنما هو سير معنوى ، وقطعها كناية عن تبديل صفاتها البهيمية بالصفات الإلهية ، بمعنى أنه يملكها حتى يضع كل وصف بمحله اللائق به . . وأما محو الصفات بمعنى زوالها بالكلية فهو غير واقع ؛ لأنها لو محيت لمحيت النفس رأساً وانعدمت ، ولا تتوهم أن السالك سائر إلى الله فى مسافة محسوسة . والوصول إلى الله وصول محسوس ، لأن هذا وهم باطل ؛ فمن هو أقرب للإنسان من حبل الوريد ومن الجليس ، كيف يتوهم السير والوصول إليه !! فإنه لا مسافة بينك وبينه [1].

إيضاح :

قول الأمير : « حتى يضع كل وصف بمحله اللائق به »

اعلم أن كل شئ فى الوجود مخلوق بالحق ، حتى ما تراه فى وهمك باطلا مذموماً . . ومن هذا الحق ، صفات النفس ، التى كلها مذمومة ، فالذم لحقها من سوء تصريف صاحبها لها ، فإذا صرفها فيما خلقت له صارت محمودة ، فالبخل مذموم ، لكن إذا بخل السالك بوقته وصرفه فيما يرضى الله ، وشح به أن يضيع فى الغفلة ، صار البخل محموداً ، والطمع مذموم ، لكن إذا طمع السالك فى معرفة الله ، وازداد طمعه فى ذلك صار الطمع محموداً . . ومن الوجه الآخر القناعة محمودة ، ولكن القناعة من الله حرمان فقد أمر الله رسول ﷺ بالزيادة من العلم ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

قال الشيخ الأكبر :

لا تقنعن بشئ دونه أبداً واشره فإنك مجبول على الشره

ولك أن تجرى كل صفات النفس محمودها ومذمومها على ما ذكرنا ؛ فهذا معنى ما قصده **الأمير** بأن زوال صفات النفس غير واقع .

---

(١) الموقف (٢٥) ، ج١ / ٢٢ .

★ **قول أبي العباس بن العريف الصنهاجي :**

« حتى يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل »

قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ أى ما استقر على الأرض والمراد أنها فانية فى الحالة الراهنة ، وإن حصل الشعور بوجودها ، فهو شعور مخالف لما فى نفس الأمر ، وهذا الشعور من غلطات الحس والعقل ، وكل شئ قيل فيه سوى وغير فهو فان باطل معدوم فى الحال والاستقبال ، إذ لا وجود إلا وجود الحق فى الحال والاستقبال ، ولا يتوهم متوهم أن الآية تدل على أن ما على الأرض له وجود فى الحال وإنما فى ثانى حال ، ومثل هذا قول أحد العارفين : « حتى يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل »، يعنى يفنى الشعور والظن الذى كان يظن أنه علم بوجوده ، لا أنه كان موجودا وانعدم ، وفنى لأنه قال : لم يكن أى يوجد مع الشعور والظن الباطل أنه موجود ، فهو عدم فى آن الشعور بوجوده ، فإذا ارتفع الحجاب الذى هو الجهل لا غير فلا يقع العيان إلا على فقد الأعيان .

إنما الكون خيال ... وهو حق فى الحقيقة

كل من قال بهذا ... حاز أسرار الطريقة

فالعالم خيال وباطنه حق ثابت ، أى هو حق فى صورة خيالية [1] .

★ **قول ابن العريف أيضاً:**

قد تاب أقوام كثير وما ... تاب من التوبة إلا أنا

يقول الأمير :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

التوبة أنواع باعتبار ما منه المتاب ، فطائفة تتوب من المعاصى وطائفة تتوب من الطاعات ، أى من نسبتها إليها .. وطائفة تتوب من طلب الأعواض والأجور ، وطائفة تتوب من التوبة .

(١) الموقف (٤٦) ج ١ / ٣٠.

قال ابن العريف الصنهاجي :

قد تاب قوم كثير وما تاب من التوبة إلا أنا

وإشارة الآية الكريمة على ما أعطانا الإلهام الإلهي ، فرّقت بين توبة العموم وسمّتها تطير ، وتوبة الخصوص وسمّتها توبة ، فالخاصة وهم العارفون بالله توبتهم الرجوع منه إليه ، وخاصة الخاصة توبتهم الرجوع إليه من نسبة الرجوع إليهم ، إذ لا يرجع إلا موجود ولا وجود لهم ، فتوبتهم من دعوى الوجود.

وإليه يشير قائلهم :

إذا قلت : ما أذنبت ؟ قال مجيبه وجودك ذنب لايقاس به ذنب

فليس في الحقيقة إلا هو الراجع والمرجوع إليه ؛ فهو التائب كما قال تعالى : ﴿ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ فالتوبة فعله والفعل قائم بالفاعل . . وهؤلاء التائبون هم المعنيون بقوله ﷺ : « إن الله يحب كل مفتن توّاب » وفتنتهم إنما هي طرق الغفلة عليهم من هذه المشاهدة ، لما هو لازم البشرية من الغفلة والنسيان ، فإذا تذكروا تابوا توبتهم الخاصة فهم أحق وأولى بمحبة الله تعالى [1] .

★ قول أبي سعيد الخراز لرسول الله ﷺ حين رآه في المنام :

« يا رسول الله شغلتني محبة الله عن محبتك »

يقول الأمير :

الحكاية المشهورة بين القوم ، عن أبي سعيد الخرّاز رضي الله عنه أنه اجتمع برسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله شغلتني محبة الله عن محبتك ، فقال له ﷺ : يا مبارك محبة الله هي محبتي ، يريد : شغلتني محبة المظهر الروحي العلوي عن محبة المظهر الجسمي الأرضي ، فأجابه ﷺ أن الظاهر في المظهرين واحد ، لا تعدد فيه ، ولا تغاير ،فالمحبوب في المظهرين واحد ،

(١) الموقف (٢٤١) ج ١ / ١٦٣ .

ولا يضرك تغاير المظاهر وتعددها ، فمن أحب الظاهر فى المظهر الروحىْ فقد أحب الظاهر فى المظهر الجسمى ، وليس الظاهر فى جميع المظاهر العلوية والسفلية إلا للصورة الرحمانية المسمّاة بالحقيقة المحمدية ، وكل ما قيل فيه أرواح وأجساد ومثال وخيال إنما هى تقادير وتصاوير قدّرها الحق لظهور صورته ، ولا وجود لها لا قديم ولا حديث ، وإنما الوجود للحق تعالىٰ .

مراتب بالوجود صارت حقائق الغيب والعيان

وليس غير الوجود فيها بظاهر والجميع فانى

كأنه ـ عليه السلام ـ قال لأبى سعيد : الشئ الذى قلت أنه رسول الله وأنك مشغول عن محبته ليس هو بشئ مغاير لله ، فالرسول ﷺ مرتبة ظهور الحق تعالى ، وهذه المرتبة واسطة لجميع الظهورات ، ومنها تفرعت فهى ينبوعها وهيولاها [1] .

★ قول ابن مشيش:

« واجعل الحجاب الأعظم حياة روحى وروحه سر حقيقتى »

يقول الأمير :

رأيت فى بعض المرائى أنى جالس فى قبة بيضاء وأنا أتكلم مع أشخاص لا أراهم فتكلمنا فى قول القطب عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه : **« واجعل الحجاب الأعظم حياة روحى ، وروحه سر حقيقتى »** ؛ فقلت لهم : سأل الشيخ بهذا أن يكون الحجاب الأعظم وهو الحقيقة المحمدية والتعين الأول .

« حياة روحى » ، أى اجعلنى به حيا على الكمال لا مطلق الحياة ، ومطلوب الشيخ ومقصوده أن يكون روحه مظهراً كاملا ومجلى تاما للحقيقة المحمدية ، فالروح المحمدى ينطبع فى روح الولى الوارث المحمدى انطباع الطابع فى الشمع ، فقال لى واحد لم أر شخصه : فعلى هذا يتماثل المطبع فيه مع الطابع ؛ فقلت له : هيهات ، المنطبع فى الحقيقة أصل والمنطبع فيه مجاز

(١) الموقف (٤٩) / ج١ / ٣١.

وفرع ، فإنّا نقول فى الحق تعالى حىّ ، وفى زيد حى ، وأين حياة الحق من حياة زيد ؟! .

« وروحه سر حقيقتى » يريد روح الحجاب الأعظم ، وروح الحجاب الأعظم هو الذات البحت ، الغيب المطلق الذى لا يعبر عنه بعبارة ، ولا تتطرق إليه إشارة ، إذ الحجاب الأعظم هو غاية معرفة العارفين ونهاية السائرين ، غير أنهم علموا أن وراء هذا الذى أدركوه شيئاً من حقيقته لا يُعرف ولا يُدرك ؛ فكان العجز عن درك الإدراك إدراك . فحينئذ ظهر واحد منهم وقبل يدى [1] .

★ قول أبى سليمان الدارانى :

« لو وصلوا ما رجعوا »

يقول الأمير :

اعلم أن كثيراً من أهل الرياضات والمجاهدات على غير طريق الأنبياء وصل إلى الروح الكلى ، فظن أنه هو حقيقة الحقائق ، وأنه ليس وراءه مرمى ، فكفر ورجع من حيث جاء . . ولهذا يقول بعض سادة القوم : ما رجع من رجع إلا من الطريق ، ولو وصلوا ما رجعوا ، يعنى الوصول إلى الذات الغيب المطلق ، إذ ليس وراء الله مرمى ، وأما مرتبة التعين الأول والحقيقة المحمدية والحجاب الأعظم فوراءه مرمى وهو الله [2] .

★ قول الإمام الغزالى :

« ليس فى الإمكان أبدع مما كان »

يقول الأمير :

قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

---

(١) الموقف (٥٧) ، ج ١ / ٣٥ .
(٢) الموقف (٥٧) أيضاً .

المطلوب من الواقف على هـذا الموقف أن يعطيه مـا يسـتحق من التـأمل والانصـاف . . اعلم أن الله أعطى كل شئ ـ أى مـوجود ـ خـلقه طبـيـعتـه واستعـداده ، ولحقائق الممكنات استعـدادات معلومة له تعالى ثابتة مـعدومة ، وبالنظر إلى كون علـمه تعالى قديمـاً محيطاً ، لا يقبـل التغييـر لاستحـالته ، فالممكن المعلوم حالة عـدمه لا يقبل التغيير لما يلزم مـن انقلاب العلم جهلاً ، والله تعالى لا يعطى حقيقـة وذاتا من ذوات الممكنات حالة إيجاده من الأحوال والصفات إلا ما علمه منه حالة عدمه ، لطلبه ذلك باستعداده وطبعه إذ انقلاب الحقائق محال .

وصح قول حـجة الاسلام الغزالى رحمه الله : ليس فى الإمكان أصـلا وأحسن ولا أتم مما كان ، أى مما هو عليه كل ممكن فى الحال ، ويكون عليـه فى الاستقبال من الأحوال والصـفات دنيا وأخرى ، ولا أحـسن ولا أكمل ولا أتم ولا أبدع ولا أحكم من إعطاء كل مستعد ما هو مـستعد له ، فإنه لا يطلب غيره ، بل لا يقبله . .

الا ترى أن النفخ يطفئ الشمعـة ويشعل النار ، فلو أراد النافخ أن يشعل الشمـعة بالنفخ لما قبلت ، والفـعل واحد والاستعـدادات مختلفـة ، والتجلى الإلـهى واحـد وحقائق الممكنات تقبله بحـسب استعدادتها وقـوابلها ، والحق واسع عليم بالاستعدادات ، حكيم يضع الأشياء فى مواضعها التى تستحقها ، فالله ما ظلم أحداً مـن خلقه ، ولا عدل به عما علمه حالـة عدمه ، ولو قيل لحجة الإسلام : هل فى الإمكان الفعلى أن يخلق الله أحسن وأتم وأكمل لقال هو ممكن عقلا إذا أراد ، أما كشفاً فـهو محال لأن العالم مخلوق على الصورة الإلـهيـة ، والإمام الغزالى يتكلم مع الجمهـور أصحاب العقول ، فـهو يقرب الأمر إلى عقولهم . « وقول الامام الغزالى باختصار » :

لو خلق الله الخـلائق كلهم على عـقل أعقلهـم وعِلم أعلمهم ، وأفـاض عليهم من الحكمة مـالا منتهى لوصفه ، ثم كـشف لهم عن عواقب الأمور ، وأطلعهم على أسرار الملكوت ، وأمرهم أن يدبروا الملك والملكوت ، لما اقتضى تدبير جميعهم أن يزاد فيما دبّر الله به الخلق فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ،

ولا أن ينقص منه جناح بعوضة ، ولا أن يُرفع عيب أو نقص أو مرض ، وكل ما قسم الله بين عباده من رزق وأجل ، وسرور وحزن ،وعجز وقدرة ، وإيمان ومعصية وطاعة ، عدل لاجور فيه ، وحق لا ظلم فيه [(١)].

والحاصل أن حجة الاسلام ﷺ رمز بهذه المقالة إلى سر القدر المتحكم فى الخلائق ، وهو الذى تنتهى إليه الأسباب والعلل ، وهو لا سبب له ولا علة ، وهذا بحر زاخر عظيم عميق واسع الأطراف ،مضطرب الأمواج ، غرق فيه طوائف من القاصرين . . ووراء هذا البحر سر القدر الذى تحيّر فيه الأكثرون ، ومُنع من إفشاء سرّه الكاشفون .

واعتاص هذا الأمر على الأفهام ، وتباينت فيه الآراء ، وما عرفه إلا العارفون بالله ، فقد عرفوا صحة المعنى ، وأصل المبنى ، غير أنه ما استقام لهم التطبيق على المعنى المراد لقصور الألفاظ .

وكنت أنا الحقير أقول عند المذاكرة مع الإخوان فى هذه المسألة : المعنى صحيح ، واللفظ مشكل ، إلى أن ورد هذا الوارد . . أما غير العارفين من مجيب ومعترض ، فهم متخبطون بين كلام أهل السنة والاعتزال ، والكل فى ناحية عن مرمى حجة الإسلام .

وقد بسط الكلام فى هذه المقالة الشيخ أحمد بن مبارك فى كتاب (الإبريز) ، وقال : إنه فعل ذلك نصيحة للمسلمين ، وهو من القادحين فى هذه المقالة ، ولم يشم رائحة للمعنى الذى ذكرناه ، فلا يحجبنك أيها الواقف على ما كتبناه جلالة المتكلمين فى هذه المسألة ، وحقارة هذا الكاتب (الأمير يقصد نفسه وهذا من شدة تواضعه) عن أخذ ضالتك عند من وجدتها (٢).

---

(١) كتاب الإحياء ، كتاب الشعب ، ج ١٣ / ص ٢٥٠٩، ١٩٦٩م .
(٢) الموقف (٢٢٦) ، ج ١ / ١٤٩ .

★ **وصل :**

كلام حجة الإسلام الإمام الغزالى ورد فى (باب التوكل) من كتاب (الإحياء) ، وختم الإمام كلامه بقوله : ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التى هى أصول مقام التوكل .

وانقسم العلماء فى هذه المسألة حول الإمام الغزالى ، فبعضهم أنكرها عليه ، وبعضهم أنكر نسبتها له ، وبعضهم أيّده فى كلامه وانتصر له ، فقد اعترض عليه أبو العباس ناصر الدين المالكى فى رسالته (الضياء المتلالى فى تعقب الإحياء للغزالى) ، والحافظ الذهبى فى تاريخه ، وبدر الدين الزركشى ، وبالطبع انتصر له سادتنا الصوفية ، لأنهم شربوا من مشربه ، وعرفوا من أين صدر كلامه ،فانتصر له الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، والشعرانى ، وعبد الكريم الجيلى ، ومحمد المغربى الشاذلى شيخ جلال الدين السيوطى ، وأحمد بن زروق ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، والأمير عبد القادر الجزائرى ، وأنكر نسبة هذه العبارة إليه أبو بكر الباقلانى .

ونكرر أن فهم كلام أهل الله والإمام الغزالى منهم . يحتاج إلى ذوق ومشاهدة ، فهو كلام تمجّه العقول والأفكار ويثلج الصدور وتقبله القلوب والأرواح والأسرار .

والشيخ أحمد بن مبارك الذى ردَّ مسألة الإمام الغزالى كما ذكر الأمير سلفاً عاد وقبلها ، فهو يقول بأنه رأى شيخه عبد العزيز الدباغ بعد موته بين اليقظة والنوم ، وخرج به إلى مكان فيه الإمام الغزالى وقال له : إنه قطب ، وولى كبير ، وأمره بتعظيمه حتى قال ابن مبارك : إن كلام الإمام الغزالى فى غاية الإتقان والعرفان ، وقد امتلأ قلبى بتعظيمه واحترامه بعد هذه الرؤيا ، وهذا عندى من أعظم بركات شيخى واعتنائه بنا حتى بعد موته [1].

ولكن ابن مبارك قبل كلامه السابق اعترض على كلام سادتنا الصوفية فى انتصارهم للإمام الغزالى ، وربما كان هذا هو الوجه الذى جعل الأمير يذكر ابن مبارك فيمن ردَّ كلام حجة الاسلام .

---

(١) الإبريز ، أحمد بن مبارك ، ص ٢٩٦ .

★ قول الشيخ الاكبر محى الدين بن عربى :

فلولاه لما كنّا ولولا نحن ما كانا

فإن قلنا بأنا هو يكون الحق إيّانا

فأبدانا وأخفاه وأبداه وأخفانا

فكان الحق أكوانا وكنا نحن أعيانا

فيظهرنا لنظهره سراراً ثم إعلانا

يقول الأمير :

فلولاه لما كنا : لولا هو إله معبود ما كنا مألوهين ، ولولا هو وجود ظاهر ما كنا مظاهر لوجوده ، ولولا هو الفاعل ما كنا قابلين .

ولولا نحن ما كنا : ولولا نحن العابدون ، والمظاهر لوجوده ، والقابلون لفعله وخلعه ما كان فاعلاً ، فالأمر بيننا وبينه منقسم ، فإن معبودا بدون عابد محال ، وفاعلا بدون محل قابل للانفعال محال .

فإن قلنا بأنا هو : يعنى لا وجود لنا إلا وجوده ، فنحن عبارة عن الوجود الظاهر بأحوال أعياننا الثابتة فى العلم أزلا وأبداً .

يكون الحق إيانا : من حيث ما ظهر فينا من أسمائه لا مطلقا ؛ فلسنا إياه من كل وجه ، نحن كالمرآة ، ولا يظهر فى المرآة إلا ما تقبله من الصفات لا عين المتجلى .

فأبدانا وأخفاه : أظهرنا نحن معاشر الممكنات . وأخفى نفسه فى مرتبة الاسم الباطن بالنسبة لعامة المحجوبين ، فالحق عندهم باطن خافٍ ، والخلق ظاهر بادٍ ، فلا يشهدون إلا خلقا .

وأبداه وأخفانا : وذلك فى مرتبة تجليه بالاسم الظاهر لأهل وحدة الشهود فإنهم لا يشهدون إلا حقّا ، فالحق هو الظاهر البادى ، ولكن أحوال الممكنات أخفته عن المحجوبين ، أصحاب العقول ، وهذا من أعجب العجائب !! .

فكان الحق أكوانا : يريد أنه تعالى هو الكائن عند قوله كن .

وكنا نحن أعيانا : أى ذوات مشهودة محسوسة من حيث قيام أحكامنا بالوجود الحق النور .

فيظهرنا لنظهره : يظهرنا من حيث نسبة الوجود لنا ، لا أعياننا ، فإنها ما ظهرت ولا تظهر دنيا ولا آخرة ، لأن أحوالنا ونعوتنا معانى لا تقوم بأنفسها .

سراراً ثم إعلانا : يريد أنه تعالى هو الظاهر فى نفس الأمر على كل حال سواء كان ذلك الظهور سراً بالنسبة إلى أهل العقول المعقولة ، أو كان ذلك علنا لأهل وحدة الشهود [(١)].

★ قول الشاعر :

رأت قمر السماء فأذكرتني ... ليالي وصلها بالرقمتين

كلانا ناظر قمراً ولكن ... نظرت بعينها ورأت بعيني

يقول الأمير :

سألنى بعض الإخوان عن معنى البيتين السابقين :

قوله رأت : يريد حقيقته الغيبية (حقيقة الشاعر) ، وأسند الرؤية لها دون صورته الشهادية ، لأن رؤية هذا القمر لا تكون بالأبصار ، وإنما تكون بالبصائر ، وقمر السماء يعنى الحقيقة الكلية المسماة بالقمر ، لكونها مظهر شمس الأحدية التى هى غيب مطلق ، وهذا القمر مظهر لنورها ، كما كان القمر المحسوس مظهراً لنور الشمس المحسوسة ، والحق تعالى ظهر فى هذا القمر والحقيقة الكلية بذاته ، وظهر فيما عداه من المخلوقات بصفاته .

قوله :(فاذكرتنى) : رجوع من الفرق إلى الجمع ، لأنه بعد حصول هذه الرؤية للحقيقة تلوح على الجسم آثارها ، وتسرى فى جزئياته أنوارها ، أذكرتنى هذه الرؤية ما كنت غافلاً عنه بسبب انغماسى فى الكدورات الشهوانية واشتغالي بالإدراكات الجسمانية، لأنى لما تعلقت بالهيكل الأرضى صرت لا

---

(١) الموقف (٢٥٠) ج ٢ / ٨١ .

أرى نفسى إلا إيَّاه ، وما شعرت أنى لست من هذا العالم ، فأنا فيه غريب ما لى منه نصيب .

(**ليالى وصلها**) : يريد أوقات وصل حقيقتى المرئية الجزئية بالحقيقة الكلية القمرية يعنى أوقات كان الجزء غير متعين والفرع غير بائن من أصله.

(الرقمتين) روضتان بالبادية ، كنى بهما عن التعيّن الأول الذى تكون الحقائق فيه شئوناً ، والتعيّن الثانى وتسمى الحقائق فيه أعياناً ثابتة ، فليالى الوصل كانت له فى هاتين الحضرتين ، وإلى هذين الموطنين حنين العارفينَ ، وعليهما أنين الكاشفين ، يقول قائلهم :

أنا فى الغربة أبكى	**ما بكت عين غريب**
لم أكن يوم خروجى	**عن مكانى بمصيب**
عجبا لى ولتركى	**وطنا فيه حبيبى**

(**كلانا ناظر قمراً**) أى الحقيقة الرائية والمرئية ، فالحقيقة الجزئية تنظر قمراً والحقيقة الكلية تنظر نفسها فى مظاهرها وتعيناتها .

(**نظرتُ بعينها**) يعنى أن نظرة الحقيقة المسماة لا يكون إلا بعينها من حيث أنه لا بصر له إلا بصرها .

(**ورأت بعينى**) يعنى هذه الحقيقة القمرية ترى نفسها بأعين مظاهرها فى مظاهرها ، وقال نظرت بعينها ، فجاء بالنظر فى حقه وبالرؤية فى حقها ، لأن حقيقة النظر هو تقلب الحدقة نحو الشىء بخلاف الرؤية ، فإنها إدراك ، فنزهها عما تقتضيه لفظة النظر ، وهذا غاية الأدب ، والله أعلم وأحكم [1].



---

(١) الموقف (٢٩٠) ج ٢ / ١٢٤ .

★ **قول عمر بن الفارض :**

وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابى لن ترىٰ

يقول الأمير :

(**وإذا**) ربما أفادت هنا التكرار ، أى كلما سألتك أن أراك بأن أكون أنا الرائى وأنت المرئى ، والشيخ عمر ﷺ يعرف أن رؤية الحق تعالى ، محض فضل لا تُنال بالسؤال ، ولكن إذا غلب الوجد والشوق ، وهل الإنسان عن المعلوم والمعقول والتحت والفوق ، فبدرت منه بوادر فقيل : أساء الأدب بحسب مقامه فى الظاهر .

وقوله (فاسمح) استعملها الشيخ هنا بمعنى العفو ، وعدم المؤاخذة عما يفرط منه وقت غلبة الحال مما يقال فيه سوء أدب .

قال شيخ الشيوخ أبو مدين ﷺ :

وصن سرَّنا فى سكرنا عن حسودنا وإن أنكرت عيناك شيئاً فسامحنا

وقوله (ولا تجعل جوابى لن ترىٰ) اعتراف منه برفعة مقام سيدنا موسى عليه السلام ، لما سمع كلام ربه بـ (لن ترانى) طرب والتذَّ لفناء إرادته فى إرادة ربه ، وفهمه من كلام الله ما لا يفهمه الولى ، فطلب الشيخ ﷺ من ربه أن يكون جواب منعه من سؤاله بلفظ آخر غير (لن ترانى) ، فإن هذا الجواب يفتت الكبد ، كأن يقول له لن تطيق رؤيتى ، فيكون المانع من جهة السائل ، فهذا هو هون فى المنع من أن يكون المانع من جهة المسئول [(١)] .

★ **قول ابن الفارض أيضا :**

ومنِّى على سمعى بلن إن منعت أن أراك ، فمن قبلى لغيرى لذَّت

يدل على أنه شرب من المقام الموسوى وإن كان شُرب النبى لا يشبه شرب الولى ،وأنه انتقل من مقامه الأول ،فإن الولى يُعرف مقامه من كلامه ، وإن

---

(١) الموقف (٣١٩) ج ٢ / ١٨٣ .

لم ير ، ولا أُدرك زمانه ، والشيخ عـمر ما كان من كُمَّل الـورثة بشهادته على نفسه ، فإن ولده مـحمد سأله التربية فى طريق القـوم والسلوك ، فقال له : يا ولدى أنا ما كملت فى نفسى ، فـاذهب إلى السـهـروردى ، وقد تكلم الشيخ عبـد الغنى النابلسى فى كتابه (كـشف السرّ الغامض بشـرح ديوان الفارض) بغير ما ألهمنا الله تعالى (١) .

★ قول الشيخ الأكبر:

فلم يبق غـيـر الحق لم يبق كـائن ... فـما ثـم موصـول ، ومـا ثم بائن

بذا جـاء برهان العيـان فمـا أرى ... بعــينــى إلا عــينـه إذا عـايــن

يقول الأمير :

يشير الشيخ رضي الله عنه إلى المقام الذى يضمحل فيه أحوال السائرين وتنعدم فيه مـقامـات السـالكين ، فـإنهم لا يرون إلا الحق تعـالى ، وإن خـالطوا الناس وعاشروهم ، فليسوا معهم ، وإن رأوهم لم يروهم من حيث هم ، فلا يرون منهم إلا كونهم من جملة أفعال الله ،فهم يشاهدون الصانع فى الصنعة ، فلا جمعهم يحجبهم عن فرقهم ولا فرقهم يحجبهم عن جمعهم ، شربوا فازدادوا حضوراً، مـقامهم (كان الله ولا شئ معـه) فخاصة الخـاصة يرون الوحدة فى الكثرة ولا غيرية بينهـما ، وخلاصة خاصة الخاصة يجمـعون بين الشهودين ، وهم فى هذا الشهـود على طبقات عال وأعلى ، وكـامل وأكمل ، وأعلى من الجميع ، مَن يشهد العين الجامعـة مطلقة عن الوحدة والكثرة والجمع بينهما ، وأما مشاهـدة الحق قبل أو بعد أو مع أو فى كل شىء ، فكلها ناقصة لـما فيها من التحديد بالقبلية والبعدية والمعية والظرفية ، والكاملون لا ينفون العالم كما ينفيـه أهل الشهود الحـالى الذين غلبت عليهم مشـاهدة الوحدة ، ولا يثبـتون العالم كما يثبته أهل الحجاب على أنه غير وسوى .

---

(١) الموقف السابق .

★ **يقول سيدنا ابن عربى :**

فالجمع والفرق حال ناقص أبداً فاعدل ، وكن واحداً إن كنت إنسانا

يوصى رضي الله عنه قائلا :

إياكم والجمع والتفرقة فإن الأول يؤدى إلى الزندقة ، والاتحاد ، والثانى تعطيل الفاعل المطلق ، والمراد أن تجمع بين الشهودين ، فالكامل من الرجال يشهد الوجهين وهو الكشف الكامل [١] .

---

(١) الموقف (٣٥٤) ج ٣ .

الباب السابع
وصايا وتصحيح مفاهيم صوفية

أقام الأمير مجالسه فى دمشق ، وكانت مجالس علم وذكر ، أجاب فيها عن أسئلة مريديه ، وأصحابه ، وكشف فيها عن آرائه فى مشكلات الفلسفة ، وعلم الكلام والتصوف ، وغير ذلك ، وإن كان كتاب المواقف يتضمن كل هذه المعارف ، إلا أن الكتاب لضخامة حجمه ، وعدم ترتيبه في أبواب ، ربما يصرف السالك المبتدئ عن قراءة ما يفيده من الكتاب ، وقصدنا من هذه الدراسة إفادة المريدين وشيوخ التربية .

فمما ذكره الأمير في مجالسه وأخذنا من حياة الأمير وكلامه متكأ نستند عليه فى إيضاح حقيقة التصوف ، وتعريف أهل الطريق بذلك ، وتصحيح مفاهيم فاسدة انتشرت بين الصوفية ، وأدت إلى انحراف الكثيرين عن الهدف المنشود من السلوك ، ونأمل من هذه الدراسة أن نعيد إلى الأذهان الحقائق الواضحة ، بل القواعد والقوانين التى يجب أن يسير عليها المريد وشيخ التربية وتزيل من أفكار عامة الناس مآخذهم وهجومهم على التصوف ، ونكرر أن اختيارنا للأمير عبد القادر لدراستنا كان ضرورياً ، حيث أنه رجل دنيا وآخرة ، فهو من الصوفية ، وعاش الدنيا بأوسع ما تكون ، ووصل الى أعلى مقامات الولاية ، كما ظهر لنا ذلك من بعض معارفه التى ذكرناها سلفا .

★ كرامات الأولياء :

كرامات الأولياء ثابتة فى الكتاب والسنة ، ومن أراد الأدلّة على ذلك ، فعليه بالمؤلفات التى وضعت فى هذا الموضوع وهى كثيرة ، وكل كتب طبقات الصوفية فيها ما يشفى الغليل .

وما يهمنا هنا هو توضيح الفرق بين الكرامة ، والاستدراج ، والمكر الإلهى ، فقد انتشر فى عصرنا هذا ظواهر تشبه الكرامات ، هذه الظواهر تمكّن منها أناس كثيرون فى الشرق والغرب ، لا يدينون بأى ملّة بل هم إلى الكفر أقرب

وكان فى هذا فتنة كبيرة لكل الناس ، وما نسمـعه من خوارق اتخذت مسميات مختلفة ، ولبثت ثوب العصر الحديـث ، ما هى إلا استدراج إلـهى لأصحابها ، من هذه الخوارق ما يسمى بالتنويم المغناطيسى ، والتخاطر عن بُعد ، وشفاء المرضى عن طريق ما يـسمى بتحـضير الأرواح ، والجـلاء البصرى والسـمعى والتنبؤات بالمستقـبل التى تصدق أحياناً ، وغير ذلك كثيـر ، وتم إنشاء معاهد لتعليم هذه الخوارق ، وعقدت مؤتمرات عالمـية لدراستها ، وافتتن بعض علماء المسلمين بهـا وقالوا : لم نترك الغـرب يسبقنا فى المجـال الروحى ونحن أولى منهم بذلك ؟.

وأساس هذه الخوارق لا يتعدى ثلاثة مصادر هى : قوىٰ النفس القطرية ، أو التى تتقـوىٰ بالتدريـب والريـاضـة ، والتعـامل مع الجـــن ، والتعـامـل مـع الشياطين .

إن أول شروط الكرامة عند أهل الله كتمانها ، وعدم الانشغال بها ، وعدم انتظار حدوثها ، بل التـغافل عنها ، لا اذاعتها ونشرها فى المجـلات وعرضها على شاشـات التليفزيون ، كمـا نراه الآن

والكرامـة إذا لم تكن تثبت لـلولى فى طريقه ، أو هداية عـاص ، أو رد مُنكر عن اعتراضـه على أولياء الله ، فهى استدراج إلـهى ، ولذلك قال أهل الله : أكبـر كرامة هى الاسـتقامـة ، سداً لهذا البـاب ، وإن كانوا لا ينكرون الكرامـات بل يشكرون الله عليـها ، لكـن مـع الاسـتـقـامة على كـتـاب الله وسـنة رسوله ﷺ ، ورأى الأمـير عبـد القادر فى خوارق العادات يتفق مع آراء الصوفية ؛ فهو دائما ينبه السـالك أن لا يفتتن بها ، ويقلل من أهميتها فى نظره . .

يقول : إن كل من رحمه الله وعرفه بنفسه وبحقيقة العالم كله علوّه وسفله وجعل يشتـاق إلى رؤية عالم الغيب والخيـال المطلق فهو مخطىء غيـر مصيب سئ الأدب ، والسالك أول مـا يحصل له الكشف يرتقى عـن عالم الحس، ثم عالم الخيال المطلق ، ثم يرتقى بروحه إلى السماء الدنيا ، ثم الثانية ثم الثالثة ، ثم إلى العرش ، وهو فى كل ذلك من جملة العوام المحجوبين ، إلا أن يرحمه

الحق بمعرفته ، ويرفع عنه الحجاب ، وطريقة الكشف مع السلوك ، وإن كانت أعلى وأكمل ففيها طول على السالك وخطر عظيم ، فإنّ هذه الكشوفات كلها ابتلاء ، هل يقف السالك عندها أو لا ؟!

فإن صمم السالك على طلبه ، ومضى على عزمه معرضاً عن كل ما سوى مطلوبه ، فاز ونجا ، وإلاّ طرد ووقف ورجع من حيث جاء ، وخسر الدنيا والآخرة .

ومهما ترى كل المراتب تجتلى عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا [١]

وقال :

طلبت من الحق تعالى أن يجعل لي نور اكشف به ، حتى أعرف ما آتي وما أذر ، فقال لي في الحين : ها هو ذا في الكتاب والسنة ، فانتبهت لقوله تعالى : ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ⁽١٥⁾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ ، فعرفت أنه لا نور يرغب فيه الراغبون مثل الاستقامة على الكتاب والسنة ، لأنه تعالى ضمن النجاة في العمل بها ، وضمنها في العمل بالكشف [٢] .

وقال : وصل بعض الرهبان والبراهمة وغيرهم من أهل الرياضات والمجاهدات على غير سبيل الرسل - عليهم السلام - إلى التعين الأول وهو الحقيقة المحمدية والعقل الأول ، فظنوا أن لا شئ وراءه ، فخسروا وباءوا ورجعوا من حيث جاءوا [٣] .

وقال : كل ما يراه المكاشف في يقظته من نبي وولي ومرتاض ، ولو على غير شرع مشروع ، والنائم في نومه فهو من صور عالم المثال الروحاني [٤] .

---

(١) الموقف (١٨) ج ١ / ١٨ .
(٢) الموقف (٢٠) ج ١ / ١٩ .
(٣) الموقف (٨٦) ج ١ / ٥٠ .
(٤) الموقف (٢٤٨) ج ٢ .

وقال :

من أهل الله من لا ينقله شئ يحمله ، ولا تؤثر فيه النار أو لا تحرق ثوبه ولا أعنى بقولى هؤلاء الذين يأكلون النار ، ويدخلون مسامير الحديد فى أشداقهم ، ويدخلون التنور (الفرن) ،ويمشون راكبين على ظهور الأشخاص ليعرفهم العوام بالولاية ، مع عدم الاستقامة والمشى على الكتاب والسنة الذين هما أساس طريق أهل الله ، فما يصدر عن هؤلاء المدعين ما هو إلا شعبذة وسيمياء ، وخواص نفسية .

وأما أهل الله فلا تظهر عنهم كرامة إلا لفيضان وجد ، أو هداية مريد ، أو نصرة شرع ،أو إنقاذ هالك ، أو حاجة شديدة أصابت الناس ، فإنه كما يجب على النبى إظهار معجزته يجب على الولى ستر ولايته فإذا أظهره الله تعالى من غير إرادة منه ، فذلك إلى الله . . هذا شأن الكاملين ، وأما أصحاب الأحوال فليس كلامنا فيهم [(١)].

وقال :

اعلم أن العلم محبوب للنفوس ، لشرفه لاسيما علم ما غاب عن أكثر الناس ، لا سيما فى الإلهيات ، فإذا توجهت النفس لذلك ، وبرقت لها بارقة من الجناب الإله عند توجهها ، إذ حقيقة النفس تعطى ذلك على أى حالة كانت من جميل وقبيح ، وعلى أى نحلة كانت من النحل . لكن لا على الكمال ، ولا على ما يعطى السعادة ، فإذا انطفأت البارقة ، أرادتها النفس، وتعبدت لها ، و يصير أصحاب هذه النفوس ، إما حلولية ،أو اتحادية أو إباحية ، أو ما يشاء الله من الضلالات ، وهم مع هذا يتخيلون أن ما هم عليه هو الطريق المستقيم ، طريق أهل الله ﴿ **اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ** ﴾ فهم يستهينون بالأعمال الصالحات وأنواع القربات من الصلاة والتهجد فى الليالى المظلمات ، وعند هذا يقبل عليهم الحارث (إبليس) إقبال الوالد المشفق على ولده الوحيد ، بالالقاءات والواردات والتنزلات الشيطانية ، وقد

---

(١) الموقف السابق .

ملك الله لإبليس الخيال ، فيُخيل لهم ما أراد مما يزيدهم ضلالاً ووبالاً ، فإن سبقت لواحد منهم العناية الإلهية ، وقليل ما هم ، بل هو الغراب الأعصم ، أساقه الله إلى من يبيّن له ضلاله ، ويعرفه أن النجاة فى اتباع الشرع ، فالحذر الحذر - يا إخوانى - ممن هذه صفاتهم ، والنجا النجا ممن هذه سماتهم ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ (١) .

★ زيادة إيضاح :

اعلم أن جميع الخلق من بنى آدم ، من كل ملّة ودين ، بل الكفار يجتمعون فى حقيقة واحدة . وهى نفخ الروح فيهم ، فكل إنسان يدبره هذا الجوهر اللطيف .

والقوى الخفية والحاسة السادسة وما شابه ذلك من مسمّيات ظهرت فى عصرنا الحاضر ، ما هى إلا فيض وظهور بعض خواص النفس . . والنفس امتداد للروح ، لتدبير الجسد ، وتختلف هذه الخواص من شخص لآخر قوة وضعفاً ، مثل أحوال الجسم من القوة والضعف والصحة والمرض ، وهذه القوى النفسية يمكن تقويتها بالتدريب ، وذلك بتفريغ الفكر من أى أمر ، واتخاذ الخلوات ، والعزلة والبعد عن الناس ، والتأمل والتركيز ، كما هو مذكور فى كتب اليوجا الهندية ، فيصل الإنسان بعد فترة تطول أو تقصر حسب استعداده . إلى ما يسمى بالكشف الظلمانى ، فيرى الجن والشياطين ، وبعض الأمور الغيبية ، ويمتلك قدرات خارقة، مثل لمس المريض فيتم شفاؤه ، أو معرفة ما يفكر فيه جليسه ، أو رؤية القادم من بُعد ، وغير ذلك من خوارق العادات ، أما اتصاله بأرواح البشر فى البرزخ كما يدّعى أصحاب الروحانية الحديثة وتحضير الأرواح ، فهذا يستحيل وقوعه لصاحب الكشف الظلمانى ، وكل ما يرونه ممن يدّعون أنهم أرواح فى الجنة ، وهم على غير دين الإسلام ، ليسوا إلا أرواح الجن والشياطين ، وكذلك يشاهدون روحانيات الكواكب ، وقد ذكر الأمير أنهم يرتقون فى تطورهم النفسى حتى يصلوا إلى حقيقة الحقائق ، وهم فى كل هذا على ضلال ، وما يهمنا فى هذه المسألة هو كشفها

(١) الموقف (٢٦٧) ، ج ٢ / ٩٧ .

لأبناء الطريق وتحذيرهم من اتخاذ مشايخ لا يعملون بالشريعة ، اعتماداً على ما يصدر منهم من خوارق العادات ، واتصالهم بالجن والشياطين ، فهؤلاء المدّعون الدجّالون لهم سيطرة لا تحمد عقباها على أبناء الطريق الذين تتلمذوا على أيديهم؛ فهم يصلون بتلميذهم إلى نفس النتيجة من الضلال والانسلاخ من الشريعة ، وقد أدركت ـ يا أخى ـ أن هذه الخوارق يمكن للكافر امتلاكها ، فمن أرادها فليتتلمذ على أيدى أى شخص من أى دين ويعرف أنه سائر إلى هلاك محقق .

قال سيدنا عمر الفوتى :

ذكر الشيخ زين الدين الحوافى أن أحد أصحابه دخل الخلوة فى خراسان ، فجاءه الشيطان فى صورة الخضر وقال له : تريد أن تحصل لك العلوم اللدنية ، وكان مائلاً أن يتكلم بالمعارف فقال له : افتح فاك فرمى الشيطان براقه فى فيه ثم صنف كتاب فى المعارف . فلما التقيت به وحكى لى واقعته قلت : يا مسكين ذلك كان الشيطان جاءك فى صورة الخضر ، ولعب بك وشغلك عن طاعة الله وذكره [1].

قال سهل : أكرم الكرامات أن تبدّل خلقاً مذموماً من أخلاقك بخلق محمود . وقصدنا من هذا التطويل والإسهاب تحذير المريد حتى لا يقع فى حبائل إبليس ، كما هو حال أغلب المريدين فى زماننا هذا .

★ عالم الخيال والبرزخ والمثال :

هذا الفصل يُعتبر تكملة للفصل السابق ، وعالم المثال هو العالم الفاصل بين عالم المعانى المجرّدة ، وعالم الحس .

وتتنزل المعانى المجردة التى لا تُكيف ولا توصف إلى عالم المثال فى صورٌ فيتصور العلم باللبن ، والدين بالقيد ، والقرآن بالعسل ، وهكذا ، وفى هذا العالم تلتقى الأرواح فى النوم وفى اليقظة لمن تمكّن من هذا العالم ، وفيه أيضا يرى النائم الجن والشياطين . وقد مكّن الله تعالى فى هذه الحضرة إبليس

---

(١) رماح حزب الرحيم على هامش كتاب جواهر المعانى عمر الفوتى ، ص ١٣١ .

وجعل له سلطاناً فيها ، فإن لم يكن لك علم يقينى تُميز به بين الحق وبين ما يخيّله لك الشيطان . التبس عليك الأمر .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن الرسول ﷺ قال لابن صياد : « **ما ترى ؟ قال : أرى عرشاً على الماء ؛ فقال ﷺ : ترى عرش إبليس على البحر** » .

وفى حضرة المثال يتلقى العارف واردات ويسمع هواتف تفسر له آية من كتاب الله تعالى ، أو حديث شريف ، أو تعرفه حقائق وعلوم لدنية ، وللعارف المحقق علامات يقينية ليس فيها أدنى شك ، تدله على صحة هذه الورادات ، ورغم كل هذا لا ينطق بها ، أو يقبلها إلا بشاهد من الكتاب والسنة ، وقد ورد على الأمير عبد القادر ورادات كثيرة ، دوّن بعضها وتوقف فى بعضها ، رغم تمكنه من هذه الحضرة .

يقول :

(بعد أن يشرح سعة رحمة الله ، ويذكر الحديث الذى ورد فى صحيح البخارى : لو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة)

لا تقل أيها الواقف على هذا الموقف أسرفت وأفرطت ؛ فإنى والله توقفت فى كتابة هذا الوارد ثلاثة عشر شهراً بعد وروده إلى أن أذن الله تعالى فى كتابته [(١)] .

وفى موقف طويل ، بل كتاب مستقل سمّاه الأمير (بغية الطالب فى علم ترتيب التجلى بكليات المراتب) ـ فى حوالى ١٥٢ صفحة ـ يقول :

ولما اشتمل عليه كلامنا من الأسرار المضنون بها ، لأن علماء الظاهر تنكرها وتسارع إلى ردها ، لما شرعت فى هذا الموقف وكتبت بعضه ورد الأمر الإلهى بالتوقف ، وتلا عليّ الوارد قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ فتوقفت مدة نحو السنتين إلى أن ورد الإذن الإلهى باتمامه [(٢)] .

---

(١) الموقف (٢٢٨) ج ١ / ١٥٣ .

(٢) الموقف ٢٤٨ ج ٢ / ٧ .

ها أنت ـ يا أخي ـ ترى واحداً من أهل الله، يتوقف حتى يتثبت ويكون على يقين من كلامه الذى يكتبه لك ولى ولغيرنا ، مع أن هذا الكلام إلقاء غيبى له قواعده وأصوله ، فما بالك بمن يكتب كل ما يخطر على باله .

إن نعمة الكتابة ، والتأليف موهبة ورزق مثل نعمة المال والصحة وغير ذلك ، إذا أنفقها صاحبها فيما يقربه ويقرّب غيره إلى الله فاز ونجا ، وإن أنفقها فيما يبعده ويبعد غيره عن الله هلك وأهلك غيره وإن أنفقها فى مباح فلا له ولا عليه .

وكلام الأمير يخص العارفين أهل التلقى الإلهى . وذكرناه لتنبيه المريد السالك إلى خطورة عالم المثال . وأنه مسرح الهداية والضلال .

ويذكر القطب الغوث بهاء الدين الروّاسى . الذى مكث فى الجامع الأزهر ثلاث عشرة سنة . وتمكن من علوم الظاهر والباطن ، وخرج من الأزهر بإذن من القطب الغوث صاحب الوقت ، يذكر أنه وهو فى طريقه إلى دمشق تراءى له الشيطان (وهذا لقاء فى اليقظة فى حضرة المثال) وقال له : أين مثلك فى زمانك،تصدر على كرسى الإفادة . بمنطقك ، بنحوك. بفقهك . بتفسيرك ؟ هدر وزمجر، وبالغ وتشدق ؛ فكدت أتمزق من غيظ القبض (١) .

ولكن ظهر له سيدنا أحمد الرفاعى وخلّصه من هذا التلبيس الشيطانى .

★ الجن والشياطين :

هؤلاء السادة الأولياء مثل القطب الرواسى أو الأمير عبد القادر وغيرهما مع جلالة قدرهم ، وتجاوزهم لمراتب الكشف الظلمانى . لا يثقون فيما يرد عليهم من عالم المثال إلا بشواهد من الكتاب والسنة ، ولا يسارعون فى نطق أو تنفيذ ما يرون ، فما بالى أنا وأنت وكل من فتنته نفسه نُصدق كل ما نرى في نومنا ، ونعمل به ، أضلّنا الشيطان ، فحسبنا الأحلام وحديث النفس وقائع ومبشرات وواردات ، وما تراه من أحوال فاسدة انتشرت بين أهل الطريق من المريدين ، والداهية الكبرى أنها انتشرت بين الشيوخ ، ما هى إلا إضلال

(١) بوارق الحقائق بهاء الدين الروّاسى ص ٣١ .

شيطانى ، جاءهم من عدم تمكنهم من عالم المثال ، فيصدقون ما تلقيه إليهم الجن والشياطين .

فعد الشيوخ للإرشاد بأنفسهم ، وتقوّلوا على الله وكذبوا وافتروا ، فلا تسمع منهم إلا هذين ، فهذا يدّعى أن شيخه الرسول ﷺ ، وآخر يدعى أن شيخه الخضر ، وثالث يدعى أن شيخه المهدى المنتظر ، ونصيب المريد منهم لا يتعدى سماع هذه الأقوال ، فلا تجد عندهم الشفاء من علل النفس وأمراض القلب ، بل التعب والانتقام لكل من خالف أقوالهم المضلة ، وقد ترى بعضهم فى نومك بل ربما فى يقظتك فى مرتبة القطب الغوث المتصرف بإذن الله فى الكون ، وكل هذا من تضليل الجن والشياطين لهم ، ونزيدك فى هذا المجال ما يرفع عنك كل تلبيس وخداع .

ذكر الشيخ على عقل شاعر الطريقة الخليلية أن الجن جاهدوا معه للتغرير به كما يفعلون مع غيره قال رحمه الله :

رأيت فى نومى وأنا إلى اليقظة أميل أن رجلاً جاءنى فسألته : من أنت؟ فقال : أنا الخضر ، فقلت له ـ وقد فهمت أنه جنى : مالى وللخضر وأنا من أمة محمد ﷺ يرعانى فى كتابه وسنته فلا حاجة لى بالخضر فقل لى من أنت ، فحاول اقناعى أنه الخضر فلم أصدقه ؛ فقال : أما وقد فهمت ، فأنا جنى أسكن منزلك ، وقد أتيت لأضلك ، وأعيّنك قطباً ، ولكنك لم تنخدع واسمى زمعال .

وقال : رأيت قبل ذلك قوماً من الجن وأظهروا لى أنهم جن . وقالوا : اختر لك كرامة نظهرك بها نحن الذين نداوى الصرعى فى مقام فلان ، ونعمل الزهور فى مقام فلان ، فقلت لهم : تنحّوا عنى لا حاجة لى بكرامتكم .

وكنت نائماً فأيقظنى اثنان من الجن ، وقالا : نحن نحبك لأنك تكثر من ذكر الصمدية ، ونحب أن نخدمك فيما تأمرنا به ، فقلت : لست محتاجاً لخدمة من قومكم مطلقاً ، اذهبا عنى فإنى متعب والنوم يغلبنى ، فلا ترهقونى، ثم نمت [1] .

(١) الإيمان والروح ، أحمد عبد المنعم الحلوانى ص ١٩٣ .

هكذا يجب أن يكون حال أهل الله ، وقد أطلنا الحديث فى هذه المسألة لما رأيناه فى أغلب الطريق شيوخها ومريديها يدورون فى فلك الجن والشياطين طوال حياتهم ، ويموتون على هذا الحال ، ويحسبون أنهم أفضل خلق الله ، وأكرمهم عنده وأتقاهم . .

فاستدرك - يا أخى - ما فاتك ، إن كنت وقعت فى حبائل الجن والشيوخ الذين يسخرونهم ، ويجمعون حولهم الناس بهذه الحيل، التى تدخل فى نطاق السحر والكفر ، وجاهد حتى تصفو نفسك ، وتكون على بصيرة من أمرك ، وإلا فالهلاك حتفك والنار مثواك ، ندعو الله أن يأخذ بأيدينا إلى الصراط المستقيم ، ويقينا شر السقوط فى هذه الزلقات الخطيرة .

★ الفلسفة وعلوم الفكر :

أهل الله يأخذو الحكمة أنّى وُجدت ، فالحكمة ضالة المؤمن ، ولو نطق بها إنسان فاجر ، والمعروف فى الطريق الصوفى أن العلم الإلهى الموصل إلى طريق السعادة ، لا يأتى بالفكر والنظر العقلى ، بل النظر العقلى من أكبر العوائق فى الوصول .. وكتب الصوفية ، وخصوصاً كتب الشيخ الأكبر ابن عربى ، بها ما ينص على ذلك .. وقصة لقائه بابن رشد الفيلسوف العربى الكبير معروفة.

قال الشيخ عنه : رأيته فى رؤيا . . . ، فعلمت أنه غير مراد لسلوك الطريق وهذا يدل على أنه لا تلاقى بين الفلسفة والتصوف ، ورسالته للشيخ الإمام فخر الدين الرازى تشرح وجهة نظره فى علوم الفكر ، وتحذر هذا العالم الجليل والمفسّر الشهير ، من علوم النظر .

يقول الشيخ الأكبر للإمام فخر الدين الرازى :

إن حُسن اللطيفة الإنسانية ، إنما يكون بما تحمله من المعارف الإلهية وقبحها بضد ذلك . وينبغى للعالى الهمة أن لا يقطع عمره فى المحدثات وتفاصيلها فيفوته حظه من ربه .

كما ينبغي له أن لا يتعلق بالأخذ من فقير أصلاً ، وكل من لا كمال له إلا بغيره فهو فقير ، فارفع الهمة في أن لا تأخذ علما إلا من الله تعالى على الكشف .

وينبغي للعاقل أن يتعرض لنفحات الجود ، ولا يبقى مأسوراً فى قيد نظره وكسبه ، فما لك - يا أخى - تبقى فى هذه الورطة ، ولا تدخل طريق الرياضات والمجاهدات والخلوات التى شرعها الرسول ﷺ فتنال العلم اللدنى .

واعلم أن الناس كلهم ناظرون إلى وجوه أسبابهم ، والحكماء والفلاسفة كلهم وغيرهم إلا المحققين من أهل الله .

وينبغي للعاقل أن لا يطلب من العلوم إلا ما يكمل فيه ذاته وينتقل معه حيث انتقل ، وليس ذلك إلا العلم بالله تعالى من حيث الوهب والمشاهدة ... إلى أخر الرسالة (١).

فإذا كان هذا الكلام موجَّه لشيخ من أئمة الإسلام يميل فى طلب العلم إلى النظر الفكرى والقياس والاستنتاج ، فماذا يقال للفيلسوف ؟!!.

ويقول الشيخ الأكبر فى كتاب التجليات :

رأيت الحلاج فى تجلى العلة ، فقلت له : يا حلاّج هل تصح عندك علته له ؟ ، فتبسم وقال لى : تريد قول القائل : يا علة العلل ، ويا قديماً لم يزل { يقصد الفيلسوف اليونانى أرسطو } قلت له : نعم ، قال لى : هذه قولة جاهل ... إلى آخر التجلى (٢).

فهذا هو رأى أهل الله فى الفلاسفة ، وأرباب النظر وعلوم الفكر ، فكيف بعد هذا يتم مزج التصوف بالفلسفة وهما على طرفى نقيض ، والتصوف الإسلامى ليس من الفلسفة فى شيء والفلاسفة العرب المسلمين

(١) رسائل ابن عربى جـ ٢ ص ٢ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ص ٣١ .

أمثال ابن رشد وابن سينا والفارابى ، ليس لهم صلة بالتصوف ، ولم يذكرهم أصحاب طبقات الصوفية فى طبقاتهم ، والصوفى يعرف من كلامه .

وقد نشأ الخلط بين الفلسفة والتصوف ، نتيجة وجود علوم فى التصوف تشبه فى ظاهرها علوم الفلسفة ، مثل علم بدء الخلق ، والكون ، والأفلاك والنفس الكلية ، والعقل الأول ، وغير ذلك ، مما ذكره العارفون فى كتبهم أمثال ابن عربى ، وعبد الكريم الجيلى . . وكلام أهل الله فى هذه المسائل أتى عن مشاهدة لا عن فكر نظرى كما يفعل الفلاسفة . .

ولنستمع إلى الأمير عبد القادر ، يقول :

الضالين بمعنى الحائرين ، لأن كل ضال حائر فهم الناظرون فى ذات الله بعقولهم من حكيم وفيلسوف ومتكلم ، فإنهم ضالّون حائرون فى كل يوم، بل فى كل ساعة ، يبنون ويهدمون ، يجزمون بالأمر بعد البحث الشديد والجهد الجهيد ، ثم يشكّون فى جزمهم ، ثم يجزمون بشكهم ، وهكذا حالهم دائماً ، بين إقبال وإدبار ، وهذه حالة الحائر الضال . . وقد نقل عن إمام الحرمين زعيم المتكلمين أنه قال : قرأت خمسين ألفا فى خمسين ألفا وخليت أهل الإسلام وعلومهم ، وخضت فى الذى نهى الشرع عنه ، وركبت البحر الخضّم ، كل هذا فى طلب الحق وهروباً من التقليد ، والآن رجعت إلى كلمة (عليكم بدين العجائز) فالويل لابن الجوينى إن لم يدركه الله بلطفه . . ونقل عن فخر الدين الرازى إمام المتكلمين أنه قال عند الموت : اللهم إيمانا كإيمان العجائز . . ومن شعره يتأسف على ما فاته :

نهاية إقدام العقول عقال واكثر سعى العالمين ضلال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وأنشد الشهرستانى فى كتابه (نهاية العقول) ، وهو كتاب ما ألّف مثله متكلم :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسرحت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا وضعا كف حائر على ذقنه أو قارعاً سن نادم

فهـؤلاء فحول المتكلـمين ، انظر إلى حيرتهم وضـلالهم ، فكيف تكون حالة من دونهم ، ولهـذا ترى طوائف المتكلمين يلعن بعضهم بعـضا ، ويكفّر بعضهم بعـضاً ، بخلاف أهل الله العارفين به ، فإن كلمتـهم في توحيد الحق واحدة [1].

وقال ﷺ :

المتكلمـون في التوحيـد خلطوا الأمر ، وحـيّروا الفكر ، وخـبطوا خبط عشواء في ليلة ظلماء ، فكلامهم إن كان في الذات البحت ، فالذات لا كلام فيها بنفي ولا إثبات ، المخبِر عنها صامت ، والناظر إليها باهت ، وإن كان في الألوهيـة فهي مطلقـة مقـيدة ، حـارت الرسل والكتب المنزلة في أوصـافهـا بالمتضـادات ، فإذا رددنا ما وصـف به الحـق نفسه ، وأجريـناه على ما يوافق عقولنا ، كنا جاهلين ، وغير مؤمنين بكلام الله ورسوله [2].

وقال :

لا جهل بعد علم ، وأعني بالعلم علم القوم الحاصل من التجليات الربانية والإلهامات الروحـانية ، وأما العلم الحصل عـن النظر العقلي بالأدلة الفكرية فمثل هذا لا يسمى عند القوم علما [3].

وقال :

أكابر المتكلمين في التوحـيد بالنظر العقلي يعتقـدوا المسألة في جانب الإله عشر سنين مـثلاً ، أو عشرين ، ثم يبدوا لهم بطلانها ، ويعـيش أحدهم مدة عمره على عقد في جـانب الألوهية ، وقبل موته بيسير يبـدو له خلافه فيرجع عنه ، واختلفت مـقالاتهم ، ولعن بعضـهم بعضا ، وكـفر بعضهم بعـضا ؛ فالإله الذي عرفه الأشـعري ، غير الإله الذي عرفه المعـتزلي ، غير الإله الذي عرفه الظاهري ، غيـر الذي عرفه الحكيم الفيلسوف ، وعليه فمـا زعموه علماً بالله ليس بعلم بل هو تخييل وتوهّم .

---

(1) الموقف (١٤) ج ١ / ١٦ .
(2) الموقف (٣٥) ج ١ / ٢٥ .
(3) الموقف (٩٢) ج ١ / ٥٨ .

وقال :

قال تعالى : ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ** ﴾ وما تكلم الرسول ﷺ فيها إلا كذلك قال ﷺ : « **تفكّروا فى آلآء الله ولا تفكروا فى ذاته** ». والآلآء هى آثار أسمائه الفعلية ، وهى أحد أقسام أسماء الألوهية ، وكل من تكلم فى الذات بأنها ليست جوهرًا مثلا ولا عرضا ولا كذا ولا كذا من المتكلمين ، فقد أساء الأدب وتعدى الحد [1].

★ وصية :

اتضح لك ـ **يا أخى** ـ بعد عرض آراء الأمير ، أن أهل الله لا يرضون لك أن تأخذ معرفتك من أقوال علماء الكلام والفلاسفة ، ويحذرونك فى سلوكك من الاعتماد على الفكر والعلم النظرى ، ولا يغرنك أسماء الفلاسفة وشهرتهم فى القديم والحديث ؛ فيستهويك كلامهم وسحر ألفاظهم ، وها هو أستاذ الفلاسفة العرب فى عصرنا الحاضر د . عبد الرحمن بدوى يطلق على الفيلسوف الروسى (نيقولاى بردياتيف) العارف بالله ،فماذا تنتظر بعد ذلك ، وقد صار كل من تكلم فى الميتافيزيقا عارفاً بالله ، ولا ندرى على أى طريقة صوفية سلك (نيقولاى بردياتيف) ؟ ، ومَنْ شيخه الذى أوصله إلى مرتبة المعرفة بالله ؟!!.

إن كتب سادتنا الصوفية بما فيها من علم الشريعة والحقيقة ، وبما فيها من بركاتهم وأنفاسهم ومددهم لا توصلك إلى المعرفة بالله ، ولو حفظتها كلها عن ظهر قلب ، دون سلوك على يد شيخ ، فما بالك بكتب الفلسفة وعلم الكلام وهى خالية تماماً من هذا الفن .

★ الاعتدال فى حب الشيخ المرشد :

الشيخ المربى ، أهم شرط فى سلوك الطريق ، لكن المريد بعد أن يُسر الله له الاستشراف على بداية النهايات ،(ولا نهاية للسلوك والترقى دنيا وآخرة كما هو معروف عند القوم ، والمقصود بالنهاية : تمكن المريد من معرفة الحضرات والأخذ عن الله تعالى بعلامات لا يدخلها أدنى شك).

---

(١) الموقف (٢٥٨) ، ج ٢ / ٩٠ .

نقول : بعد أن يُسر الله للمريد ذلك ، يصير كل ما دون الله حجاب له عن الوصول ، ويصير التغالى فى حب الشيخ قاطع وحجاب ، وعلى الشيخ أن يدل المريد على هذا المقام إذا وصل إليه . .

وقد ذكر الإمام الشعرانى فى كتاب (لطائف المنن) أن أحد المريدين قطع جميع المقامات ، ثم وجد نفسه منقطعا عن الوصول ، فقال له شيخه : يا ولدى بحثت فى أمرك ، فلم أجد عائقا لك إلا شدَّة تعلقك بى ، فاقطع هذه العقبة ، وهذا من صدق الشيخ وإخلاصه ، فالشيوخ الصادقون ، يدركون تماما أن الله أقامهم فى الإرشاد لجمع المريدين على الله لا على أنفسهم .

فلا بد فى البداية من حب الشيخ والانحياش إليه بالكلية ، فإنه باب المريد إلى دخول الحضرة المحمدية ، فإذا فنى المريد فى هذه الحضرة الشريفة ، تولاه الرسول ﷺ بالإرشاد ، وتصبح صلته بالشيخ صلة شكر واعتراف بالجميل والدعاء للشيخ ، فالمريد لا يستطيع رد جميل الشيخ مهما فعل ، وعلى المريد أن لا يترك شيخه ولو وصل لأعلى المقامات ، بل يرجع إليه فى كل شىء ، ولو كانت رتبته عند الله أعلى من رتبة الشيخ . .

واستمع إلى الأمير يقول :

من الحكايات المتواترة عند القوم أن عارفاً رأى مريداً حزيناً ، فسأله عن سبب حزنه فقال له المريد : مات أستاذى ؛ فقال له العارف : ولم جعلت أستاذك من يموت .

ففى هذه الحكاية أدب عظيم ، وإرشاد جسيم إلى الطريق المستقيم ، وأكثر المريدين عن هذا فى غفلة ، فالمريد يأتى الشيخ لطلب الطريق ، والشيخ لا يرد من طلب الطريق كائنا ما كان ، ولو أطلعه الله تعالى على باطن المريد بالكشف والفراسة [1] ، وكان الرسول ﷺ يقبل أقوال المنافقين مع اطلاعه على بواطنهم ، وقد يكون المريد كاذباً فى دعواه ، أو تكون همته باردة ، أو

---

(١) ليست هذه قاعدة عامة ، والأمير يقول بقول الشيخ الأكبر فى ذلك ، ولكن بعض الشيوخ يمتنعون من قبول بعض المريدين لأسباب هم أعلم بها . .

يكون الحق لم يقسم له شيئا فى الطريق ، أو تكون له قسمة زمانها بعيد ، أو تكون له قسمة على يد شيخ آخر ، فيخرج المريد ويتكلم فى الشيخ بالباطل فيهلك هلاكا أبديا ، إن لم يتداركه الله بالتوبة ، فعلى المريد أن يعتقد أن الشيخ داع إلى معرفة الله ، والحق تعالى قد قسّم الحظوظ المعنوية فى الأزل ، فالواجب على المريد الكامل أن يكون مع الشيخ الكامل ، كما كان الصديق رضي الله عنه مع الرسول ﷺ فإنه كان يراه باب الله الأعظم ، وأنه أفضل العالمين وسيد المرسلين ، وما كان يعتقد بيده ضراً ولا نفعاً ، ولا عطاء ولا منعاً ، ولهذا ثبت يوم موته ، وكل الدعاة إنما هم ظهورات الحق وصُوره ، والله هو الداعى نفسه لنفسه بنفسه ، فهو الداعى من حيث ظهوره وتعيّنه بصور الرسل والمشايخ . والمدعو من ظهوره ويعينه بصور المريدين ، ودعوته لنفسه من رتبة الألوهية (1).

★**وصية :**

معرفة الشيخ الكامل لا تكون إلا لأهل العناية والاختصاص الإلهى، وهى أكبر نعمة يمن الله بها على السالك ، وأغلب المريدين يفتنون وينجذبوا إلى أرباب الأحوال من أهل الطريق الذين تظهر عليهم خوارق العادات ، وقد أجمع أهل الله أن المجذوب وصاحب الحال غير مؤهل للإرشاد وإن قضى حوائج المريدين ، وكان الشيخ أبو مدين وهو شيخ الشيوخ ، يفتح الله على يديه قضاء حوائج الناس ، وهو نفسه يصعب عليه قضاء أقل حاجة لنفسه ، وقال أحد العارفين : ربما يمشى مريد الشيخ على الماء وشيخه يموت عطشًا .

فالشيخ الكامل المتمكن يضع الأسباب ، ويمشى مع الحكمة الإلهية، وفتوحه فى باطنه وكراماته فى قلبه ، فإذا رآه المريد المطموس البصيرة ، انصرف عنه لأنه لم يره مستهلكا فى الحقيقة كأرباب الجذب الذين ما رجعوا إلى الخلق ، فيظن أن حال المجذوب هو الكمال ، فالدلالة على أرباب الأحوال الناقصين ، وتنصيبهم للإرشاد فيه ضرر عظيم وفساد جسيم ، فلا بد من التثبت قبل أن يلقى المريد نفسه بين يدى الشيخ ، وإذا كان الطريق مبنى

---

(1) الموقف (19) ج1 / 19 . .

على الاعتقاد والتصديق ، فمعرفة الشيخ مبنية على البحث والتدقيق .

ومن اطلع على كلام سيدنا عبد العزيز الدبّاغ فى (الإبريز) ، وسيدنا أحمد التيجانى فى (جواهر المعانى) ، وشرح الإمام أحمد بن يوسف الفاسى على رائية تاج الدين البكرى الشريشى ، وغير ذلك من الكتب التى أفاض فيها المؤلفون وزادوا وشرحوا صفات الشيخ المرشد ، عرف شمائل الشيخ المربى وأحواله .

فلا يلتبس الأمر عليك بعد هذا الكلام ، ولا تنخدع بمظاهر المشايخ فكَم من شيخ تصدَّر للإرشاد وليس له أدنى معرفة بأصول الطريق ، فتدبر يا أخى هذا الكلام واعمل به ، كى يجمعك شيخك على الله لا على غيره . كما هو مشاهد لنا فى بعض مشايخ هذا الزمان .

★ العلم المضنون به على غير أهله :

المقصود بهذا العلم ، المعارف والأسرار الإلهية التى إذا أذاعها العارف بها لمن لم يتأهل لتلقيها ، افتتن وضل ، وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نخاطب الناس على قدر عقلوهم ، غير أن النفس تتشوق إلى العلو والظهور على أبناء جنسها فإذا ظفر المريد أو صاحب الحال ، أو السالك بسر من الأسرار الإلهية، فى واقعة أو مبشرة ، أو فهمه من أقوال العارفين ، أخذ فى نشره لكل من هبّ ودبّ ، وهذا من دسائس النفس المحبة للظهور ، وقد حذّر أهل الله من هذا المزلق الخطر ، ورغم هذا لم ينج منه بعض أكابر العارفين ، وإن كان قصدهم فى ذلك سليم ، وهو شحذ همة المريدين ، وتزهيدهم فى ما هم فيه من مقامات وأحوال ، وقد حدث للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى أنه أذاع سراً من هذه الأسرار فعاتبه الحق فى ذلك ، ثم خلّصه بلطفه ورحمته مما وقع منه يقول :

منحنى الله سراً من أسراره سنة ٥٩٤ هـ فأذعته وما علمت أنه من الأسرار التى لا تذاع ، فعوتبت فيه من المحبوب ، ولم يكن لى جواب إلا السكوت ، وطلبت من الحق تعالى ستر هذا السر ، وقلت : إنك تقدر ولا

أقدر ، وكنت أودعته نحو من ثمانية عشر رجلاً ، فأخبرنى الحق أنه سلّه من صدورهم ، وسلبهم إياه ، فسافرت إلى الجماعة ، فلما جاءتنى وجدت الله سلبهم ذلك وانتزعه من صدورهم ، فسألونى عنه ، فسكت عنهم ، وهذا من أعجب ما جرىٰ فلله الحمد حيث لم يعاقبنى بالوحشة [١].

وفى عصرنا الحاضر ، حدث أن الشيخ عبد الفتاح القاضى الشاذلى جلس بين أسرته يسامرهم ويدخل عليهم الأنس والسرور ، فطالبوه أن يقص عليهم شيئا مما شاهده فى خلواته وألحّوا عليه فأجابهم ، رغبة فى تشويقهم للعمل والجد ، كى يحظوا بما وصل إليه ، فذكر بعض الواردات والمنازل والمقامات ، ولما نام ﷺ حوسب على ذلك كثيراً وعُنّف : ألم تعلم أن إذاعة أسرار الربوبية كفر ، وأنه لا شك لنفسك فى هذا حظ وميْل ، ثم أتوا برصاص مُذاب ، ووضعوه على جملة مواضع من جسمه ، حتى كان فى غاية الألم ، ولما أصبح نادىٰ أهله جميعاً وقال لهم : ما قلت لكم بالأمس لم يكن لى وما كان منى ، بل هى مشاهدة لبعض رجال الله ، ذكرتها لكم فأحببت الآن أن ألفت نظركم لئلا تنسبوها إلىّ ، قال ذلك ليسلم من هذه التبعة ، ويخلص من خطر هذه المقالة .

فانظروا بعد بلوغ ذلك الكمال ونيل الوصال يُحاسب ويُعذب الإنسان على ما يكون فيه للنفس حظ ، أو لها فيه وطر [٢].

يقول الأمير فى هذه المسألة :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾

هذه الآيات تأديب وتعريف وإرشاد للمرشدين ، اعلم أن السفيه عند العامة من يبذر الأموال ويضيعها ، ولا يُحسن التصرف فيها ، وعند الخاصة السفيه من يبذر الأسرار الإلهية والمعارف الربانية ، فيذيعها فى غير موضعها ولا يستودعها أهلها فيضيعها ، فإن من العلوم التوحيدية ما لا يجوز إفشاؤه

(١) الفتوحات المكية . المجلد الثانى ، ص ٣٤٨ .
(٢) المنار الهادى ، عبد الجليل قاسم ، ص ٢٧٣ .

مطلقا ، بل هو سر بين الله وبين عبده إلى الموت ، هذا بالنسبة للخواص ، أما السالك المبتدئ فلا أضرَّ عليه وأسرع بالهلاك إليه من إفشاء ما منحه الله من أسرار التوحيد مطلقا لأهله ولغير أهله إلا لشيخه . . وما زال المشايخ يحذّرون من هذا كل الحذر ، ففى كشف أسرار الألوهية للسالك هلاكه وحتفه .

قال بعض الكاملين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ : هو المريد يتكلم بالحقائق قبل إدراكه أوان الفطام ، والنهى الوارد فى الآية هو للمشايخ . . والقوم ﷺ ما ألّفوا فى الحقائق وأذاعوا أسرار التوحيد وكشفوا بعض أستار الربوبية ، إلا لأصحابهم ومن سلك طريقهم ، ممن عرفوا فيه الأهلية والثبات على الكتاب والسنة ، وما ألفوها للعامة الهمج الرعاع ، ولا تكلموا بها فى المجالس العامة كما هو الآن ، يتكلم المشايخ الجهال بالكلمة من الحقيقة يتبجح بها ، فيتلقفها منه من هو أجهل منه ، ويطيرونها كل مطار بغير علم فضلوا وأضلوا .

وقد طبّق الأمير هذا الكلام على نفسه أولاً ، فقد سُئل فى مجالسه عن بعض الحقائق ، فكان ردَّه على قدر استعداد السائل .

سُئل الأمير عن العذاب فى الجحيم ، هل هو من نصيب الروح الحيوانى المدبر للجسد ، وهو ليس مقصودا بالتكليف فهو موجود فى الحيوان ، والحيوان غير مكلف ، أم هو من نصيب الجوارح وهى ذاكرة مسبحة بحمد ربها ، وتشهد على العبد يوم القيامة ، أم الروح القدسى العلوى المنفوخ في الإنسان، والروح عالمة بربها فكيف تُعذب ؟ قال له السائل : أجيبوا مأجورين وأزيلوا حيرة المتحيرين .

★ جواب الأمير :

إن جواب هذا السؤال لا يجرى به قلم ، وإنما يكون من قلب إلى قلب، ومن فمٍ إلى فم [1].

---

(١) الموقف (٧٦) ج١ / ٤٥ .

وسئل الأمير عن قوله تعالى : ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ كيف يصيب الرسول ﷺ الرعب وهو أكمل الخلق ، وقد كشف الله له عن أسرار كل شيء ، ورأى ما هو أكبر من آية أصحاب الكهف ، يقول الأمير : كان قد سألني بعض من يعزّ عليّ عن الآية ، فما كشفت له . . إلى أن ورد عليّ في الواقعة قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ فامتثلت الأمر ، وعلمت أن السائل مستحق لما سأل عنه ، والله يرزقنا حسن الأدب معه ومع مخلوقاته بمّنه وفضله (١) .

★ **وسئل الأمير :**

ما الحكمة فى تكليف العباد بالتكاليف الشاقة ، وإلزامهم بالأوامر والنواهى والتحجير عليهم ؟! .

فأجاب :

العبد له نسبة حقيقية إلى الربوبية ، والله أراد أن يرى جميع أسمائه فى عباده ، فلو تركهم مطلقين ما أمرهم ولا نهاهم ولا حجر عليهم ، لتعلقوا بما فيهم من الربوبية ، والدار الدنيا دار غفلة ونسيان وحجاب ، فجاءت الأوامر والنواهى والتكاليف القهرية حتى يبقى العباد واقفين عند ما خلقوا له ولا يتلعقوا بما فيهم من الربوبية .

ولحكم أخرى ، منها ما لا يجوز إيداعه بطون الأوراق (٢) .

★ المجاهدة والرياضة :

لا وصول ولا معرفة إلا بالمجاهدة والرياضة ، والمجاهدة معناها حمل النفس على المشاق من العبادات البدنية والجوع والسهر للذكر وقيام الليل، وغير ذلك على الطريق المشروع .

---

(١) الموقف (١٢٤) ج ١ / ٨٢ .
(٢) الموقف (٤٧) ج ١ / ٣١.

والرياضة هى الترويض والتذليل للأمر الصعب وهو النفس ، فالنفس الإنسانية مخلوقة على الصورة الإلهية ، ولذلك اتصفت بالشموخ والتعالى والتكبر على غيرها .

ورياضة النفس تكون بتهذيب أخلاقها ، حتى تذل أى تصير كالأرض الذلول . . ومن هنا قال أهل الله : الصوفى كالأرض يطؤها كل بر وفاجر ، فالصوفى يحب الإنسان البار ، ويتحمل الإنسان الفاجر ، كما رزقه الله رغم كفره وعصيانه ، وما نال أهل الله ما نالوه من المعارف الإلهية والحكمة والتفرد عن غيرهم ، إلا بذل النفس وتهذيب الأخلاق ، وقد ذكرنا كيفية تصريف صفات النفس فى طرقها المشروعة ، وأشرنا أنه من المستحيل محو صفاتها بالكلية ، وذلك فى تعليقنا على شرح الأمير لقول ابن عطاء الله (لولا ميادين النفوس . . . .) فى الباب السادس فانظره . .

★ **وفى رياضة النفس يقول الشيخ الأكبر :**

إذا هذّب الإنسان أخلاقه وأخرجها عن طبعها ومرادها

وذاك محال عندنا كونه فما يرى راضها من راضها بعنادها

فإن كنت ذا علم فإن مصارفا لها عُينت فى الشرع عند فسادها

وهى المصارف التى ذكرناها فى الباب السادس ، كما أشرنا إليها سلفاً ، وذكرها الأمير فى الموقف (٩٥) بوجه آخر كما ستعرفه الآن .

يقول الأمير :

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾

ورد الوارد أيام السلوك بهذه الآيات ؛ فعلمت أن المراد من هذا الإلقاء الحث على المجاهدة والرياضة ، فإنه تعالى حصر الإيمان فى المجاهدة بالمال والنفس أى بذلوا جهدهم وطاقتهم فى طلب معرفة الله تعالى ، والوصول إليه مستعينين على ذلك بأموالهم أى ببذل ما زاد عن حاجتهم فى أموالهم فى

وجوه البـر وأنواع الخيرات ، ولا يغنى السالك مـجاهـدة نفـسه بغيـر إخراج المال الزائد .

قيل لذى النون المصرى ﷺ : **إن فلانا له مال كثير ، ولا يخرج منه شيئاً فى وجوه البـر ، وهو يصوم النهار ويقـوم الليل ، فقال** : مـسكين ترك حاله ودخل حال غيره .

﴿ **وَأَنفُسِهِمْ** ﴾ أى جاهدوا مستعينين بأنفسهم ،فإن النفس مطيّة السالك فى سيـره إلى الله تعالى ، ونـعمت المطيـة لمن وفقه الله ، وهـداه ، ولولا وجود النفس ما سـار سائر إلى حـضرة الحق ولا وصل إليهـا ، فهى الحـجاب على العبد ، وهى موصلته إلى ربه ووسيلته إليه . .

﴿ **أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ فى دعوى محـبة الله ومحبة الوصـول إلى حضرة قربه ، فإذا بذل السالك مـاله ونفسه تحقق صدقه فى دعواه مـحبة الله تعالى ، ومن ادعى ذلك بلسـانه ، ولم تظهر عليـه علامـة بذل المال والنفس فهـو إما كذَّاب ، وإما دنىء الهمـة ، وقدّم المال على النفس ، لأن الإنسان فى الغالب قد يجود بجهاد نفسه بالصيام والقيام وأنواع الرياضات والمجاهدات ، ولا يقدر أن يجود بماله لما جُبل عليه من الشح .

ويجب على السالك أن لا يطلب جزاءً عـلى سلوكه وإن طلب فإنما يكون طلبه على وجه الذلة واظهـار الحاجة والافتقار ، مع تفويـض الأمر إليه تعالى فيما يريد ويختار ، فإن مطلوب الحق من عباده ترك الاختيار .

قيل على طريق الترجمة :

مرادى منك نسيان المراد إذا رمت السبيل إلى الرشاد [1]

وقال :

يقول تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا..** ﴾ ورد الوارد بهذه الآية بعـد التى قبلها ، فعلمت أن الأمـر بجهاد النفس وقتـالها هو على

---

(١) الموقف (٦٩) ج ١ / ٤٢ .

وجه مخصوص ، وحد محدود ، ووقت معين ، وهو أن لا يكون إلا فى سبيل الله ، أى لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية ، لا بشىء آخر، من يجاهد نفسه لأجل طلب جاه عند الملوك ، ولصرف وجوه العامة إليه ،وحصول غنى ونحو ذلك من الحظوظ النفسية .

﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ أى قاتلوا النفوس التى ما اطمأنت ولا أذعنت ، فإذا تركت العصيان وألقت السلاح وصارت تبادر لامتثال الأمر والنهى ، فاتركوها ولهذا ترى العارفين ﷺ لما اطمأنت نفوسهم تركوها من غير جهاد ووضعوا عنها إصرها والأغلال التى يحملونها إياها وقت جهادهم وبدايتهم ، حتى قال سيد الطائفة الجنيد : من رآنى فى بدايتى قال صدّيق ،ومن رآنى فى نهايتى قال زنديق ، وصاروا أول خير وإحسان يفعلونه قمع نفوسهم ، فإنها أقرب إليهم « ابدأ بنفسك ، ثم بمن تعول » كما هى مسيرة كُمّل البشر من الرسل والأنبياء عليهم السلام .

﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ نهى عن قتال النفس على غير الحد المشروع ، وعن التجاوز والتغالى فى ذلك ، كمن يجاهد نفسه بالرهبانية وبأمور نهى الشارع عنها ، كما يفعل بعض المشايخ الجّهال بالطريق ، يأمرون المريد بالصيام ، فإذا كان قُرب الغروب ، أمروه بالفطر حتى لا يكون له حظ فى الأكل ولا فى الأجر ، ففى اتباع السنة قولا وعملا أعظم جهاد للنفس [(١)].

★ تعريف صفات النفس :

يقول الأمير :

ليس المراد من الرياضة انعدام صفات النفس كالحسد والبخل والغضب والكبر ونحوها ، فحقيقة الإنسان معجونة بهذه الصفات ، وقلب الحقائق مُحال ، ومن اعتقد محوها رأسا من أهل الرياضات والمجاهدات فقد غلط ، وكنا نقول بهذا تقليداً لمن قال به ، ولما اطّلعنا على حقيقة الأمر رجعنا ، إذ لو انعدم الحسد مثلا ما كان تنافس فى الفضائل ، ولو انعدم الغضب ما كان

---

(١) الموقف (٧١) ج ١ / ٤٢ .

جهـاد ولا تغـــيير منكر ، ولو انعــدم الكذب ما كان خداع فى الحــرب ونحو هذا ، وإنما المراد أن تكون النفس تحت حكم الشــرع ، فصفـات النفس ما هى مذمـومة مطلقا ، وإنما هى مـذمومة فى موطـن وحال ، محمـودة فى موطن وحال .

قال سيدنا فى (الفتوحات) : الخوف ثم ترك الخوف ونحو ذلك .

والصدق مـذموم فى بعض المواطن ، فالغـيبة صـدق ولكنها مذمـومة ، والشرع هو الميزان ، مَن مسكه فى يده لا يَظلِم ولا يُظلَم ، والقصد إلى معرفة الله بالكشف والعـيان فرض عين كـالقصـد إلى الحج ، ومن كان عـاجزاً عن طلب الوصول إلى مقامـات العارفين وعلومهم لعدم استعداده فـهو معذور فى قصد الأجور والدرجـات ، كالذى قدم العمرة لعجـزه عن مشاق الحج وطول مدته ، فلا جناح عليه ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ** .. ﴾ وهذه الآية الكريمة أُلقيت علىَّ بالحرم المكى أيام المجاهدة ، والحال غالب على صاحبه ، وكل إناء يرشح بما فيه .

★ الأمير والمرأة :

كلام الأمـير عن المرأة يكشف السر فـى حب الأنبياء والأوليـاء للنساء ، وهو نوع من الحب بعيد جداً فى مفهومه عما يعرفه العامة .

وقد أخـطأ كل من كتب عن الأمـير فى هذه المســألة ، فكلام الأمـيـر فى النساء ، يظهره فى صورة العاشق الولهان الذليل أمام جمال المرأة .

يقول ممدوح حقى فى مقدمة تحقيقه لـ (ديوان الأمير) :

لقد كـانت أعصـاب الأمـيـر من حديد إلا أمام المرأة ، أو لعـل السر فى خضوعه للمـرأة كامن وراء اعجابه بأمه وشدة تعلقه بهـا ، حتى إنها لما ماتت حزن علـيها حـزناً شديداً ، وتوقف فى الـطريق بعد دفنهـا عجـز مذهولا ، وكانت والدته ذات شخصية طاغية [١] .

---

(١) ديوان الأمير عبد القادر ، شرح وتحقيق ممدوح حقى ، المقدمة .

ويستشهد **بقول الأمير** : كانت ابنة عمى (زوجته) تغضب علىّ وتواجهنى بما أكره ، فأصبر لها وأوفى حقها وقلت فيها :

وأخضـــع ذلـــة فتزيد تيها وفى هجرى أراها فى اشتداد

ومن عجب تهاب الأسد بطشى ويمنعنى غزالى من مرادى ! !

ويرى محمد الوزير فى كـتابه (الأمير عبد القـادر ثقافته وأثرها فى أدبه) نفس الرأى السابق ، إلا أنه أنصف فى رأيه ، وأرجع حب الأمـير للمرأة إلى معرفته بالحقائق الإلـهية وما للمرأة من قدر عظيم عند من عرف هذه الحقائق ، ولكن محـمد الوزير يرتاب بعض الشيء فى هذه الحـقائق ويرى أنهـا دعوى، يقول : وكذلك كـانت ابنة العم تدعه يسهر ويبكى ، وهى هانـئة بطيب الرقاد **ومع ذلك يقول الأمير :**

إذا ما الناس ترغب فى كنوز فبنت العم مكتنزى وزادى [1]

والحقيقـة التى غابت عن كل من عاب على الأمير حـبه للنساء ، هى أنه وراث محمدى ، والولى الكامل له نصيب من فيض الروح المحمدية الشريفة : وقال الرسول ﷺ : « حُـبب إلىّ من دنياكم : النساء ، والطيب ، وجـعلت قرة عيـنى فى الصلاة » ، فـالرسول ﷺ لم يحب النسـاء بنفسـه ، ولكن الله تعالى حـببهن إليه ، والله لا يحب لرسـوله إلا كل خير ، فـحب النساء عند العارفين أصل عظيم فى المعرفـة الإلـهية ، ولا نقصد حب العـامة الشهوانى ، فهـذا لا يخطر ببال أهل الله ، ويصـعب علينا شرح ذلك ، ولا يعـرف قدر المرأة إلا من علم أسرار التجليات الإلـهية فى المرأة ، وفى كلّ ذرة من الكون وهذه المعرفة تحصل بالذوق والمشاهدة ، وقد أشار الأمير إلى ذلك ، ومن قبله الإمام محيى الدين بن عربى فى فتوحاته .

---

(١) الأمير عبد القادر ثقافته وأثرها فى أدبه ، محمد السيد الوزير ، ص ١٤٥ .

يقول الأمير :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

همّت به ، معلوم من قوله تعالى ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ ، وهمّ بها معلوم من قوله تعالى : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ وهمّه بها ـ عليه السلام ـ ، هو أن يُظهر لها رحمته بها ، وشفقته عليها ، وأنه يحبها حباً إلهياً روحانياً أسمائياً ، حيث إن المرأة هى مظهر مرتبة الانفعال للأسماء ، ومن هذا المشهد حُبب إلى الرسول ﷺ وإلى كل كامل من نبى وولى النساء ، فلا تجد كاملا إلا وهو يحب النساء لهذا الشهود .

فأظهر الحق تعالى ليوسف ـ عليه السلام ـ فى سرّه برهان حكمته أن لا يقول ما همّ به ولا يُظهره لها ، فإنها جاهلة عاشقة

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى كما ابتليناه بها ووجدناه صابرا على الأمر والنهى .

نعم العبد أريناه برهان حكمتنا بترك ما همّ به ، فما همّ بسوء ، لأن الله صرف عنه السوء فهو من عباده المخلصين ، المستخلصين للنبوة والأمانة وحمل الوحى ، فاعرف ـ يا أخى ـ مقام النبوة وأثبت له الكمال ، واعرف الحق تعرف أهله ، ولا تقلد فى هذا وأمثاله أحداً من كذبة المؤرخين وجهلة المفسرين [(١)] .

وقال فى نفس المقام :

قال الله تعالى خطاباً لعائشة وحفصة رضي الله عنهما :

﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

قال إمام العارفين محيي الدين : لقيت بعض العارفين ، فقلت له : إن الله تعالى يقول : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، والجنود لا يُحتاج إليها إلا

(١) الموقف (٢٧٣) ج٢ / ١٠١

لمقـابلة عدوّ عظيم ، ومن هو هـذا العدو العظيم المضـاد لله ،فقـال لى : ألا أدلك على أعجب من هذا وتلى : فازددت إعجابا ، ومـا عرفت السر الذى كانت به هذه القوة لعـائشة وحفصة رضي الله عنهما ، فـسألت الله كشفه فكشـفه ، وما كشفه الشيخ هذا السر ، ولما وقـفت على كلام الشيخ ، تعلقت همّتى بكشفه فكشفه الحق تعالى لى مناماً ، فأخـبرنى أن هذه القوة الحاصلة للمرأتين ، إنما كانت للمـشابهة بحضـرة الانفعال وهى الحضـرة الإمكانية ، وزادا على ذلك بكونهما مظهرين كاملين للحقيقة الفعلية الوجوبية ، لكمالهما الإنسانى فجمعا بين حضرة الفـعل والانفعال ، فجنس المرأة لما كان محـلا للتكوين كان أقَرب إلى المكون ، وإن حضرة الانفـعال لها ، لها شرف عظيم ، وفـضل جسيم ، وقدر فخيم ، من حيث إن حضرة الفـعل والوجوب والتأثير إنما ظهرت بها ، فالحضـرة الانفعالية التى هى مظهـر للحضرة الفعليـة الجامعة لجمـيع الأسماء والصفات على الإجـمال والتفصيل ، لا تقـابلها إلا الحضرة الجامعـة للأسماء والصفات على الإجمال والتفـصيل ، وهى الاسم الجامع (الله) . . وحضرة التفصـيل ، وهى جبريل وصـالح المؤمنين والملائكة جميـعا ، ولانكشاف هذا السر الذى فيهن حُبب إلى الرسـول صلى الله عليه وسلم النساء ، وما قال صلى الله عليه وسلم أحببت ، فيكون حبه لهن كسائر الناس من أهل الحب الطبيعى والميل الشهوانى .

وقال سيدنا محى الدين : كنت أبغض النساء ثمانى عشرة سنة ، والآن أنا أشد الناس حباً لهن ، وما ذلك إلا لانكشاف هذا السر له .

★ وصية :

يجب على المريد أن لا يقلد الشيوخ الكـاملين ، فى إقبالهم على المظاهر الدنيوية مـثل حب النساء والنكاح والمال وحب الرئاسة ، وغيـر ذلك ، فإنهم على بصيرة فى ذلك ، ولذّتهم فى هذا الحب لذّة روحانية لا طبيعة شهوانية ، والعارف الكامل تحقق بالأسماء الإلٰهية ، فمنهم من حازها كلها ، ومنهم من حاز بعضـها ، ويحدث ذلك بعد العـروج بالنفس الكاملة ، والمريد لم يقطع مقامـات النفس بعد ، وليس له ذوق وقدم فى مـقامات العارفين ، فـعليه إذا سمع كلامـهم الذى يشم منه رائحة الإقبال على الدنيا ، ألا يفـهم ذلك بنفسه بل يرجع إلى شيخه ليدله على قصدهم الواضح .

وقد فهمت سر حب أهل الله للنساء ، وأنه وراثة نبوية ، فإذا سمعت من يقـول بأن من صفـات القطب الغـوث حب النكاح ، وقال بذلك ابن عـربى والشعرانى وغيرهما ، ويُفتح له فى فراشه كما يُفتح له فى صلاته ، فاعلم أن ذلك من تجلى حضـرة الفعل وحـضرة الانفعـال على القطب ، وسكونه تحت القهر الإلـهى ، فإذا وصلت إلى هذه الحضرات فاقتدى بالعارفين فى هذا الأمر وإلا فاشتغل بنفسك .

وإذا سمعت قول أحد العارفين : آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة ، فلا تسارع فـى فهم هذا الكلام بنفسك فإن مرماه بعـيد جداً ، وقد رأيت من يحتج بهذا القول فى تصوره للإرشاد ، وإعطاء العهود وهو لـم يفهم معنى خروج حب الرياسة من قلب الصديق .

يشرح الشيخ الأكبر هذا المعنى فيقول :

لا يزال الحق يخرج لعـبده من نفســه ما أخفـاه الله فيها ، فـإذا أخرج له حب الرياســة من قلبه ، أحب الرياســة بحب غيــر حب العامـة ، فالعـارفين يحبون الرياسة من كـونهم على ما قال الله فيهم أنه سمعــهم وبصرهم وجميع قواهم ، فما أحبوا الرياسة إلا بالله ، فيرون ويشهدون حب الرياسة ذوقا ، لا أنه يخرج من قلوبهم فلا يحبون الرياسة ، فإنهم إن لم يحبوها فما حصل لهم العلم بها ذوقا ، وهى الصورة التى خلقهم الله عليها فاعلم ذلك .

ومن ذلك أيضـا مـا ورد فى كـتب العـارفين من حب المال ، وقول الإمـام الشعرانى فى منــنه : كنت لا أجد فى نفسى فرقا بين الـذهب والتراب ، فلما عرفت الحقيقة فضلت الذهب ، وعرفت أن حالى الأول كان نقصا ، ويرد فى هذا المعنى حب سيدنا سليمان للخيل ، وحب سـيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ لولده يوسف ـ عليه السـلام ، فاعلم أن حب سيدنا سليـمان للخيل ومـسحه عليها بالسوق والأعناق ، هو حب التجلى الإلـهى فيها ، لا أنه غفل ذكر الله واشتغل بالخيل فأخـذ فى قتلها ، هذا لا يصور من ولى ، فكيف يليق بنبى ، ومثل هذه المقامات كثيراً ، فلا يحتج المريد بكلام لا يفهمه ، ويعمل به فيهلك إذ لا بد للمريد فى بدايته من الإعراض عن الدنيا والزهـد فى حلالها وحرامها حتى إذا اشـتد عوده ووصل إلى مـقامات العـارفين أقبل على الدنيـا وأخذها وتصرف فيها بإذن إلـهى ، فتنبه ـ يا أخى ـ إلى هذه الحقائق .

خاتـــمة

ما قـدمناه لك ـ أيهـا الأخ الكريم ـ إنْ هو إلا غيضٌ من فـيض معـارف الأميـر ، وفكرة مختصرة عـن علومه اللدنية ، فـالأميـر من كبـار العارفين المحققين ، ولم ينل حظه من الدراسة فى هذا الجانب ، ويكفى أنك عرفت أن سلوكه نهياً أو أمراً ، كان بمخاطبات الآيات القرآنية بالطريقة المعروفة عند أهل الله ، فالأميـر من أهل القرآن ، وهم أهل الله وخاصته ، الـذين تأهلوا لقبول تجليـات كـلام الله تعـالى ، وهذا لا يكون إلا للعبـد الذاتى الذى ترقى عن مقامات الفناء فى الأفعال والأسماء والصفات إلى مقام الفناء فى الذات، وهو الرجل الكامل عند أهل الله ، ومن دونه من العارفين هم أطفـال محجوبون ، حتى يصلوا إلى مقام العبد الذاتى ، وهذا المقام أعزّ من الكبريت الأحمر ، لا يرده إلا واحد بعد واحد .

ولم نأخذ فى دراستنا بأصول البحث المنهجى الأكاديمى ، لأن باعث الكتابة عن الأمير هو الحب والهوىٰ المحمـود ـ إن شاء الله ، وأصول البحث المنهجى تقتـضى الحياد والشك العلمى والتـجرد من الهوىٰ ، وعـدم الميل إلى صاحب الترجمة ، وأعتقد أنه من المستحيل اتباع هذا المنهج فى الكتابة عن أولياء الله ، إلا إذا كـان الكـاتب فى مـقـام صـاحب التـرجمة . . وأين نـحن من مـقام الأمير ؟!! .

وما أصـاب الأميـر من اتهامات ممن كـتبـوا عنه صدر من اتبـاع أصول البحث المنهجى ، وأغلب من تعرضوا لتصوف الأمير ليس لهم صلة بالتصوف إلا كتاب رفيقه فى الجهاد مصطفى التهامى ، فإنه من العارفين بالله .

نحن لا ندعى أننا مـن أهل السلوك الصـوفى ، فالله يعـلم أننا لم نخط خطوة واحدة فى هذا الطـريق ، ولكننا نحب أهل الله ونتبرك بـهم وبكلامهم وبمجالستهم .

وأرجو أن يكون هذا الكتاب فاتحة ومدخل لدراسة تصوف الأمير ، ونحن لم نأت فيه بجديد ، فكل ما قلناه هو من كلام العارفين ، وأدعو الله ـ إن كان فى العمر بقيـة ـ أن يوفقنى الحق ـ سبحانه وتعالـى ـ إلى دراسة كتاب المواقف

بالتفصيل ، أو تلخيصه ، ليكون فى متناول المريدين السالكين وأهل الله العارفين .

ولم نذكر من مواقف الأمير إلا القليل . وكان اختيار هذه المواقف بالذات لأنها تكشف عن حقائق صوفية ومفاهيم فى السلوك تفيد المريد المبتدىء ، وقد قمت بتلخيص المواقف المذكورة دون إخلال بالنص أو المعنى على قدر علمى ومعرفتى ، كى يسهل على القارىء مطالعتها والإلمام بما فيها من حقائق وإرشادات .

واعترف بالفضل الكبير الذى نالنى من استاذى محمود محمود الغراب، فقد تأثرت بمؤلفاته عن ابن عربى فى وضع كتابى هذا ؛ فطريقة الأستاذ الغراب فى التأليف تكاد تكون فريدة فى نوعها وهى من السهل الممتنع .

وأرجو من كل من يطالع هذا الكتاب أن يتغاض عن أخطائى الكثيرة « وكل ابن آدم خطاء » ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ وهذا شأن كل كتاب يضعه أى مؤلف بفكره البشرى القاصر .

وما وضعت هذا الكتاب إلا تقرباً لله تعالى ولرسوله ﷺ وإلى روح الأمير عبد القادر ، وكل ولى فى الأرض وفى السمآء ، عسى الله أن ينفعنا بهم ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۝٨٨ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

د . أحمد كمال الجزار

دسوق ٢٤ صفر ١٤١٧هـ

١٠ يوليو ١٩٩٦ م

عنوان المؤلف

كفر الشيخ - دسوق

أرض مفتاح

المصادر والمراجع

١ ـ المواقف (مخطوط) . الأمير عبد القادر الجزائرى . ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر ١٩٨٣م .

٢ ـ ذكرى العاقل وتنبيه الغافل . الأمير عبد القادر الجزائرى . تحقيق ممدوح حقى . ط مكتبة الخانجى . القاهرة .

٣ ـ ديوان الأمير عبد القادر الجزائرى ، تحقيق ممدوح حقى . ط دار اليقظة العربية . بيروت . لبنان ١٩٦٦م .

٤ ـ سيرة الأمير عبد القادر وجهاده . الحاج مصطفى بن التهامى . تحقيق د / يحيى بو عزيز ، ط دار الغرب الاسلامى . بيروت ١٩٩٥ .

٥ ـ التصوف والأمير عبد القادر الحسنى الجزائرى . جواد المرابط . ط دار اليقظة العربية . دمشق . سوريا ١٩٦٦م.

٦ ـ الأمير عبد القادر الجزائرى ثقافته وأثرها فى أدبه . محمد السيد الوزير . ط المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر ١٩٨٦م

٧ ـ الأمير عبد القادر الجزائرى . بسام العسيلى . ط دار النفائس بيروت ـ لبنان ١٩٨٣م .

٨ ـ الأمير عبد القادر الجزائرى العالم المجاهد . نزار أباظة ، ط دار الفكر المعاصر . بيروت ـ لبنان ١٩٩٤ .

٩ ـ أصول الوصول . الإمام محمد زكى إبراهيم . مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية ، ط الثالثة ١٩٨٤م .

١٠ ـ ديوان البقايا . الإمام محمد زكى إبراهيم . مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية ، القاهرة . ١٩٨٣ م .

١١ ـ ديوان المثانى . الإمام محمد زكى إبراهيم . دار الرسالة ، القاهرة ١٩٨٣ م.

١٢ ـ التفسير الإشارى للقرآن . محيى الدين الإسنوى . مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية . القاهرة . ١٩٩٤ م .

١٣ ـ سيرة الإمام محمد خليل الخطيب . محمود محمد الخطيب . ط على نفقة المؤلف ـ طنطا ـ مصر .

١٤ ـ الفتوحات المكية ـ الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى . ط دار صادر ـ بيروت ـ لبنان .

١٥ ـ بوارق الحقائق . الإمام محمد مهدى الروّاسى . ط دار البشائر ، دمشق ـ سوريا ١٩٩٢ م .

١٦ ـ الإنسان الكامل . الإمام عبد الكريم الجيلانى . مكتبة صبيح القاهرة .

١٧ ـ لطائف المنن والأخلاق . الإمام عبد الوهاب الشعرانى . ط عالم الفكر . القاهرة .

١٨ ـ جواهر المعانى وبلوغ الأمانى ـ الإمام على حازم برادة ، مكتبة الحلبى ١٩٦٣ م .

١٩ ـ الإيمان والروح . أحمد عبد المنعم الحلوانى . ط مكتبة الحلبى ١٩٤٧م .

٢٠ ـ الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى . ترجمة حياته من كلامه . محمود محمود الغراب . دار الإيمان . دمشق ١٩٨٣م .

٢١ ـ رسائل ابن عربى . ابن عربى . ط حيدر أباد الدكن ١٩٤٨ م .

٢٢ ـ المنار الهادى . الشيخ عبد الجليل قاسم . المكتبة العصرية . بيروت ١٩٧٣

٢٣ ـ هداية الراغبين . الشيخ عبد الحافظ بن على . دار أسامة للطباعة القاهرة . ١٩٨٩ م .

★•★•★

محتويات الكتاب

★ تم الكتاب بحمد الله ★

كتب للمؤلف تحت الطبع

▪ اللطائف : مختصر المواقف :

اختصار وترتيب وتبويب وتبسيط لكتاب المواقف للأمير عبد القادر الجزائرى ، يوضح منهج السلوك الصوفى عند الأمير والحقائق العرفانية التى يصل إليها السالك فى طريقه إلى الله .

▪ مشكلة الحياة الدنيا :

تبصير الخلق بحقيقة الحياة الدنيا ، وشرح الحقائق والآيات والقوانين الإلهية المبثوثة فى الكون ولم يعرفها إلاّ الله لا غير ، وجهلها جميع النّاس ، وصار البصير فيهم أعمى ، وكان ذلك سبباً كافياً لتعاستهم وعذابهم ، وبيان شامل لمشاكل الحياة وفهمها وحلها من منظور صوفى .

▪ النبراس فى حياة الرواس :

أو : الاعتبار فى حياة القطب الغوث محمد مهدى الرفاعى الشهير بالرواس ، غريب مقبل على الله ، وهو من أكابر العارفين المجهولين عند مريدى الصوفية .

رقم الايداع
٥٢٦٦/ ١٩٩٧
مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة ت: ٥٨١٧٥٥٠